الأيام الخضراء



رمسيس لبيب

الأيام الخضراء

رمسيس لبيب

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

إلى الصديق الذي منحني أروع صداقات عمري

إلى سعيد مصطفى حماد

ر.ل

عدت يا أيامي الخضراء

عدت يا طفولة الأشواق والأحلام

سأنطلق في مراتع الصبا، في شوارع الكروم والأنهار والفواكه، سأرتوي من عبير الذكريات، سأنفض عن قلبي غبار السنين، وأغتسل في دفء أحضان الصحاب، سألتقي بهم جميعا، بصلاح ومحسن ومجدي وكمال، ستطير ضحكاتنا في شوارع حينا من جديد، سنقف عند النواصي، سنقف عند النواصي كما كنا نفعل في تلك الأيام، ونستعيد ذكريات ونوادر صبانا، سنذهب إلى مقهانا الصغير على شاطئ الترعة، سنجلس على الشاطئ فيقبل عم أحمد بوجهه المسن الودود وعينيه المرحتين، سيرحب بنا، ويعد لنا شايه الداكن، سأرتشف ندى الود من وجوه وكلمات الأصدقاء، سيقارن عم أحمد بين أيام شبابه وأيامنا، سيسخر من جيلنا فينبري له محسن، سنطلب منه أن يحكي قصة حبه الأول التى حكاها لنا عدة مرات فيضحك عن فم خالٍ من الأسنان ويتمنع، سنلح عليه في صخب فيفترش الأرض، وتشف

ملامحه السمراء، وتطوف عيناه الندیتان بالشط الآخر، ويحكي، ويحكي ثم يتنبه فجأة ويضحك في خجل، ترى أما زال العجوز حيا؟... خمسة عشر عاما، مرَت خمسة عشر عاماً كاملة منذ أن رحلت أسرتي إلى القاهرة، كان ذلك عام ١٩٥٧، جئت مرتين، مرة بعد الرحيل بشهرين، والأخرى بعده بعام، وعدت الأصدقاء بأن أزورهم كثيرا، ما كنت أظن أن الأيام يمكن أن تتآمر علي كل هذه السنين.

غيط العنب....

الحي الحبيب يلوح خلف الكوبري الصغير، تمهل يا قلبي النزق، تريث قليلاً، أنا أعرف أنك تتوق إلى عبثك القديم، إلى ينبوعك السخي، أمامك ليلة حافلة.

إيه يا حينا القديم، يا موطن الأحباب والصحاب، طالما تلهفت إليك، كثيرا ما رحلت إليك في أحلامي، كنت أتعجل القطار وهو ينطلق إلى مدينتي الحبيبة، وعندما لاحت الأضواء توصوص وتزغرد من بعيد، وهبت أنسام الإسكندرية أنقى من كل الأنسام أسرع وجيب قلبي، وغالبتني الدموع، وحينما انطلقت في الشوارع رحت أرنو إلى البيوت

عاشقًا يتملى وجه حبيبه بعد غيبة طويلة، وأحسست بالخجل، أحسست بالخجل لأنني تغيبت كثيرا عـن مـدينتي، ووددت لو أسرع إلى كل مكان ألفته فيها، غـيط العنـب، والبحـر، وحديقة الشلالات، إلى كل شوارعها وأزقتهـا، ولـم أطـق يا حينا الحبيب أن أبيت ليلة دون أن أنطلق إليك.

وأنت يا كوبري راغب، أيها الكوبري العتيق، لم يتغير فيك شيء، كم تمشنيا هنا، كم وقفت عليك فـي الأمسـيات، الترعة، والمراكب، والمراكبية، والمواويل، مواويل الغربـة والحنين إلى العودة، ونغم الناي يرف علـى الميـاه مترعـا بالشجن يحرك في نفسي أشواقًا مبهمة، ويحملني إلى البعيد، إلى مشارف الأيام الحبلى بأشواقي وأحلامي، كل شيء كمـا كان، المراكب، والأشجار، والمصابيح الضاحكة، والمعديـة، ثمة زورق أبيض يلوذ بالشاطئ، في شـم النسـيم نركـب الزوارق إلى حديقة النزهة، الـزوارق المزينـة بالبالونـات والورق الملون، نخرج إلى الشاطئ عند الفجر في مهرجـان البمب والملابس الجديدة، ونغني في الزوارق وهي تتراقص في أحضان الأشعة البكر وقد تجمع الناس حـول عربـات

الخص والملانة، وانطلقت العربات الكارو بالأولاد والنسـاء في ملابس زاهية الألوان يغنون ويصفقون.

شارع النخيل؛ الشارع الرئيسـي فـي حينـا يزخـر بالأضواء والسيارات وعربات الفاكهة، البيوت زاد ارتفاعها، بنيت في الشارع منازل جديدة، المقهى الكبيـر ذو الواجهـة الزجاجية في مواجهة الكوبري، المقهى مزدحم، لا أعـرف وجها من الوجوه الكثيرة، كنا نفضل مقهانا الصـغير علـى شاطئ الترعة، قضبان الترام اختفت من الطريق، هـا هـي محطة الأوتوبيس، كنا نقفز إلى الترام ونهبط منه وهو يعدو، كان مجدي أبرعنا في القفز من الترام، دكان عـم يوسـف، صديقنا الكهل الطيب، ومكاننا المفضل فى أخريـات الليـل، اللافتة كما هي، صفراء باهتة " يوسف الحلواني" بخط أزرق طفولي، القشعريرة ترجفني، القلب النزق يجن، أول صـديق ألتقي به في حينا، في الليلة الأخيرة يفاجئنـا عـم يوسـف بالسؤال:

- ألن تنسى غيط العنب يا رأفت؟

وتنكسر ضحكاتنا، وتلتقي عيوننا، ويحط علينا الصمت، وتجابهني الحقيقة؛ سأرحل عن أصدقائي، عن حينا، سأسكن

في مدينة بعيدة عن كل ما ألفته وأحببته، وتجتاحني موجـة من الكآبة، وتغرورق عيناي بالدمع، وأتأمل الوجوه الحبيبة، أحاول أن أحفر قسماتها في ذاكرتي، ويبتسم عم يوسف فـي خجل، وينظر إليه الأصدقاء في عتاب.

ها قد عدت يا صديقنا الطيب، لم أنسَ غـيط العنـب، لن أنساه أبداً، سيعرفني على الفور، سيرحب بـي بصـوته الأجش وضحكاته الطيبة، سيحدثني عـن كـل الأصـدقاء، سيتحمس كعادته في كلامه عن محسن، كان مجدي يداعبـه بنكاته، ويقترح عليه خلع النابين التالفين الباقيين من أسـنانه فتفيض ضحكاته من قلبه الطيب.

عم يوسف لا يوجد بالمحل، ثمة شاب صغير لا أعرفه، لأسأله عنه.

- مساء الخير.

- أهلاً .

- أين عم يوسف؟

- في البيت... سيأتي بعد قليل... أي خدمة؟

- شكرا.

كنت أود أن تكون ضحكاته أول ما يصافحني وأنا على أعتاب صباي، كنت أود أن أحس بداية الدفء في ترحابـه الودود، عندما ألتقي بالأصدقاء سنأتي جميعا إليه.

محل فهمي الحلاق مغلق، أما زالت الشلة تلتقي عنـده أحيانًا كما كنا نفعل في تلك الأيام؟

ضئيل، ناحل، مهوش الشعر، يمرر أصابعه على شفتيه بين لحظة وأخرى، ولا يكف عن الكلام، مجدي يناديه إلـى الخارج، ويسرُ له بأن الزبون الذي يحلق له مخبر سياسـي أُرسِل للتجسس على المحل فيجفل ويشحب وجهه، ويـزوغ بصره بين مجدي والرجل ثم يـدفع سـاقيه إلـى الـداخل، وترتعش يديه، ويتودد إلى الرجل ويتملقـه، ويـتكلم بـدون مناسبة عن الأوضاع الطيبـة ورضـى النـاس، وبعـد أن ينصرف الزبون يظل قلقًا ومتوترا، وعندما يـأتي محسـن يطلب منه أن يكف عن الكلام في السياسـة بالمحـل حتـى يتمكن من تربية بناته الخمس.

يومها ضحكنا كثيرا، كان مجدي يوقعه في كثيـر مـن المآزق فيتشاجران ونصلح نحن بينهما، سأذهب إلى مجـدي في شارع الفواكه، سأقف أمام البيت وأصفر لـه بأصـابعي

وفمي.. لا.. لم يعد هذا لائقًا، لعلني نسـيت كيـف يكـون الصفير، سأطرق الباب فتفتح لي تهاني، ممشـوقة القـوام، بيضاء وفي وجهها نمش قليل، وعيناها الواسـعتان عميقتـا السواد، ستتورد وجنتاها وتغض بصرها، وتشير في حيـاء إلى غرفة الصالون، سأسخر هذه المرة من خجلها، كنت في الثالثة عشر وكانت في الثامنة عشر عندما جذبني إليها شعور مبهم، أسميت ذلك الإحساس في ذاك الزمن حبا، تبـدد بعـد ميلاده بشهور، لا أظن أنها مازالت في البيت، لا بـد أنهـا تزوجت وانتقلت إلى مسكن آخر. ها هو شـارع الكـروم، شارع بيتنا القديم، لأذهب أولاً إلى صلاح فبيته قريب مـن بيتنا.

إيه يا شارع الطفولة والصبا، خطوات وأنعطـف إلـى اليمين فأرى بيتنا وبيوت الشارع، هذا المحل الكبير للملابس المستوردة لمن يكن على الناصية، كان دكان الحاج مسـعود بائع الحلوى، كان الرجل الطويل المحـدب بوجهـه الكبيـر الحاني يداعب الأولاد ويرضيهم دائما... إيه يا بيتنـا، زدت طابقين، كنت ثلاثة طوابق، كنا نسكن الطابق الثانى، ها هما شرفتا مسكننا، الشمس لوحت الطوب الأحمر وتشبع الطوب

بالرطوبة فأصبح داكنًا، دكان عم ناشد بـائع الأقمشـة فـي الطابق الأرضى، الرجل كما هو، مكتنز وضـخم، يرتـدي الملابس البلدية، تهدلت ملامحه، بان عليه الكبر، الكرة تنفلت منا إلى داخل المحل فيندفع إلى الخارج بكرشه الكبير ويسب آباءنا وأجدادنا ورذاذ ريقه يتناثر من فمه الواسع، لا شك أنه لا يذكرني، لا يمكن أن يتعرف علي، لا بد أنه يصعب على أهل شارعنا أن يتعرفوا علي بعد كل هذه السنين، لكم تغيرت عن ذلك اليافع ابن التاسعة عشر الذى كنته عنـد الرحيـل، ها هو الزقاق المواجه لبيتنا والـذي يفضـي إلـى ترعـة المحمودية، أتخفق يا قلبي؟... أتجن أيها العاشق العجـوز؟.. اخفق ما شئت، وتمهلي يا خطاي، كانت تقف قـرب نهايـة الزقاق، أمام بيت سميرة كانت تحادثها وعيناهـا الباسـمتان معلقتان بشرفتي، كنت أترقب مجيئها بلهفة، كانت تهل بقدها الرقيق ووجهها الأسمر النقي الضاحك وتلوح لي بيدها، ليتها جاءت معى، فضلت أن أنفرد بالـذكريات ورفـاق الصـبا، ليت أمل الحبيبة جاءت معي، كنت سأشير لها إلـى نهايـة الزقاق وأقول، هناك كانت تقف ماما، وأشير إلـى شـرفتي،

وهنا كنت أنتظرها، كانت الخبيثة الصغيرة ستزر أجفانها وتضحك:

- بابا... احك لي حكايتك

هذه حكايتي يا ابنتي، هنا أحببت وحلمت وعشت أزهى الأيام، أما كان للزمن أن يتوقف عند سن الصبا، سن النقاء والأحلام، أيامها كنت أتمنى أن أكبر، أن أشب وأغدو رجلاً، كنت أقيس قامتي كل عدة شهور، كنت أسعد كثيرا عندما أكتشف أنها استطالت ولو قليلاً، الآن تغير الحال، بت أستشعر الأسى وأنا أرى الأيام تعدو لتنتهب العمر، إيه يا أيامي الخضراء، لو أعيشك مرة أخرى، لو أستعيد القلب الطفل، إيه يا بيتنا، لو أدخل البيت؛ وأصعد الدرج، وأطرق باب مسكننا، أطرق أبواب الجيران وأسلم عليهم، على الحاجة زينب، وعم محمود النجار، وعم حلمي العامل بشركة الغزل، لا شك أنهم نسوني.

- أي خدمة يا أستاذ؟

- نعم؟!

- أتبحث عن أحد هنا؟

سؤال يوجه إلىغريب...! أنا لست غريباً أيها الشـاب، هنا موطن طفولتي وصباي ومستهل شبابي، كل هذه البيوت تعرفني جيداً، بصمات أيامي هنا، على وجه البيوت، علـى النواصي، على صفحة الطريق، عندما كنـت أنطلـق فـي شارعنا لم تكن قد ولدت بعد، أستطيع أن أسمي لـك معظـم سكان الشارع.

- شكرا.

مجموعة من الشبان الصغار تقف أمام بيتنا، كمـا كنـا نفعل نحن، لا بد أنهم كانوا أطفالاً عندما رحلت عن حينـا، شعرهم طويل، وسراويلهم الضيقة تنزلق إلى ما تحت البطن، كان لبعضنا قصة مهندمة فى مقدمة الرأس لكـن ملابسـنا لم تكن بهذا الضيق والقصر، بيت الحاجة حكمـت السـمينة الهائلة، فتوة الشارع، تكثر من المشاجرات وتكون أول مـن يمد يد المساعدة ويشارك في المناسبات، وهنا كان الـدكتور محمود، منجم الحي وطبيبه غير الشرعي، عند هذه الناصية نقف، نغازل البنات ونتندر بأهل الشارع، ضحكات مجـدي تجلجل، ويربت بيده على كرش كمال ويشاكسه بنكاته فيهتز بدن كمال الممتلئ بضحكاته المكتومة الطيبة، في الأمسـيات

أجلس أنا وصلاح على الطوار نتبادل الحكايات تحت مصباح الشارع إلى ساعة متأخرة من الليل، صوت صلاح النقي، الدافئ، الأسيان يغني في سكون الليل" عاشق الروح"؛ فيجيش صدري بحنين غامض وعذب، وهنا في البيت الصغير القابع أمام بيتنا كانت المرأة ذات الوجه المجدور والعينين نصف المغمضتين، لا... لا.. هذه الذكرى دفنتها منذ زمن بعيد، حاولت دائما أن أمحوها من أيامي.

بيت الحاجة، على ناصية شارع الكروم وشارع سيدي كريم، بنيت مكانه عمارة كبيرة، كان للبيت حديقة واسعة، مهجورة فيها شجرة توت، أتسلق السياج، وأقطف حبات التوت، وتحين مني التفاتة فأرى العجوز ضامرة، جافة، محنية الظهر، تصيح في بصوت مختنق محشرج فلا أهتم، وتشوح بيدها فأخرج لها لساني، وأقطف الثمار حتى يمتلئ جيب جلبابي وأنصرف في هدوء، ها هو بيت صلاح، لم يتغير فيه شيء، ما يزال طابقين، وطلاؤه الأصفر حائل ومتشقق كما كان، سأطرق الباب فتفتح لي أم صلاح بوجهها المستدير الودود المتشح بطرحتها السوداء، ستعرفني على الفور. سترحب بي كما كانت تفعل دائما، وسيسمع صلاح

صوتي فيسرع إلي ويضمنى فى قوة، سننطلق فورا إلى بقية الصحاب، ستعترض أمه وتصرُّ بكرمها المعهود على تناول العشاء، سأعتذر لها، لا لن أرفـض لهـا طلبـا، السـاعة لا تتجاوز الثامنة والنصف، يمكن أن أقضي الليلة لدى أحـد الأصدقاء، لأمض ليلتي فى غيط العنب، هـا هـو البـاب، لا تترددي يا يدي، لاتتهيبى، أنا لست غريبا عن هذا البيت، هنا أحباب لي، هنا أقدم الأصدقاء، من؟... صبي لم أره من قبل.

- صلاح موجود؟

- من؟

- الأستاذ صلاح.

- لا يوجد أحد هنا بهذا الاسم.

- كان يسكن في هذا المسكن؟!

- نحن نسكن هنا منذ خمس سنين .

لا بد أنه انتقل إلى مسكن آخر، لا شـك أن الأصـدقاء يعرفون بيته.

ها أنذا أسير فى شارع الكروم، أخيرا تحققت الأمنيـة، بيوت الشارع تغيرت ملامحها، لا.. لم تتغير، كل شيء كما كان، كل شيء أعرفه وتربطني به صلة حميمـة، النـاس، البيوت، والشرفات، والنوافذ، وإذا كانت خطاي تتهيب السير فلأنني ما زلت على الأعتاب، لم تطوقني بعـد أذرع غـيط العنب، فى الليلة الأخيرة تركت الصحاب ومضيت وحـدي في الشوارع، رحت أتأمل وجوه الناس والبيوت وأنا أحـسُ بأني سأنتزع من أحضان أم، أم حنت علي ودللتني كثيـرا، وتمنيت لو يطرأ ما يمنع رحيلنا عن حينا، ليلتهـا لـم أنـم، تسمعت لآخر أصوات شارعنا وبكيت، وفي الصباح خرجت من الحي متعجلاً وأنا أتحاشى النظر حولي، لم يخطـر لـي يومها أنني يمكن أن أتغيب كل هذه السنين، هل أنا جاحد؟... هل يعوزني الوفاء لمن أحب؟... كيف تخدعنا الأيام وترواغ أمنياتنا وتباعد بينها وبين التحقق؟ أين أنت يـا صـلاح؟... أين بيتك الجديد؟... كـم تمشـينا هنـا... كـم ضـحكنا، وكم حلمنا...

أقول لصلاح:

- هناك قصيدة لم يكتبها شاعر، قصـيدة تفجـر فـي الإنسان ينابيعه الخفية، وتوقد أشواقه، وتحيله إلى كائن أنبـل وأسمى، وسأكتب أنا هذه القصيدة.

ويضم صلاح الكمان في حنو، يداعب أوتاره، وترحـل عيناه الحالمتان إلى البعيد:

- وأنا سأعزف المقطوعة التي لم يعزفها موسيقار.

ويحلم بأن يكون موسيقارا كبيـرا تسـمعه الجمـاهير وتصفق له.

كم من الطيور البيضاء احترقت يا صـديقي، هجـرت الشعر منذ زمن بعيد، هو الذي هجرني، مارست لونًا آخـر من ألوان الكتابة، ترى هل أبدعت أنـت المقطوعـة التـي لم يعرفها موسيقار؟... كنت أذكرك دوما، كنت أقول لنفسي إن الكثيرين من الفنانين يبدعون ويبدعون ولا يواتيهم الحـظ إلا في سن متأخرة، لا شك أن صلاح مـا زال وفيـا لحلـم صباه، يوم هجرت بيتنا بسبب الكتابة كان هو الوحيد الـذي أيد موقفي وشجعني، منحني المبلغ الضئيل الذي كـان قـد

اقتصده لشراء كمان له لأنفق منه حتى أحصل على عمـل، ثار أبي وانتزع من يدي قصيدة أكتبها، ومزقها، وطلب مني الكف عن القراءة والكتابة أو مغادرة البيـت، وفـي هـدوء جمعت كتاباتي وخرجت دون كلمة.

يومها كنت في الخامسة عشر، أمضيت يومين أفتش عن عمل في المصانع المتناثرة على شاطئ الترعة، وفي اليـوم الثالث فاجأني أبي في منزل كمال، عـاتبني دامـع العينـين وأخبرني أن أمي لم تكف عن البكاء منذ تركت البيت؛ فعدت إلى أسرتي وقد امتلكت حق القراءة والكتابة.

أيامها تعلمت من صديقي البحر أعظم الدروس، وقفـت أمامه وقد صممت على أن أشق طريقي مهما كانت الصعاب والتضحيات، ورأيت الأمـواج القويـة تصـفع الصـخور وتتسلقها، والأمواج الوانية الفاترة تتكسر عند اقدامها، أيامها لم أكن أعرف الصعب و المستحيل، كان القلب غضا، والعقل جسورا، والعالم صديقًا واعدا بالأفراح.

كنت أعتقد أن ما علي إلا أن أحلم وأحلـم، وسـتتكفل الأيام بتحقيق أحلامي، ولكم حلمت، وحلم صلاح معي.

مجدي يقول:

- أنتما مجنونان.

فيقول صلاح:

- أنت أعجز عن أن ترقى إلى مستوى أحلامنا.

ويقهقه مجدي ويشوح بيده:

- رأفت لا يريد أن يعترف لنادية بحبه حتى يجد صنما يعبده.

وينبري صلاح بالدفاع عني وعن حبي لنادية، ترى أما زال يذكرها؟.. أيذكر مشوارنا الطويل إلى محرم بك لأراها من بعيد وهي تطل من شرفتها؟

كنت أصطحبه معي لأجد الصديق الذي أحدثه عنها وعن حبي لها، أربعة أعوام وأنا أكتفي منها بالنظر، منذ الرابعة عشر حتى الثامنة عشر. في مسكنها أنظر إليها عابدا يرنو إلى معبوده في خشوع؛ وفي أخريات الليل يستبد بي الحنين ويدفع خطاي إلى بيتها لأقف على مقربة منه مستترا بالظلمة، وأتطلع إلى شرفتها المغلقة، وأناجيها، وأهمس لها.

كنت أخشى الاعتراف لها بحبي؛ حتى لا أفقـد الأمـل الذي أعيش عليه. عندما تجرأت واعترفت في رسالة لم أعطِ لنفسي الحق في أن تقول لي كلمة أحبك إذا كانـت تبـادلني الحب، طلبت منها أن تقول نعم أو لا، وقالت نعم.

يومها كان صلاح معي، توقف عنـد ناصـية قريبـة، وتقدمت أنا إلى منزلها خافق القلب، رأيتهـا تقـف بالبـاب فتصارع خفق قلبي وتعثـرت خطـاي، وددت أن أهـرب، أن أفر دون أن أسمع شيئًا لكنها ابتسمت لي فاختلج قلبي في فرح، وسألتها بكلمات مرتعشة عما إذا كانت قرأت رسـالتي فكبرت بسمتها وقالت نعم.

لا أذكر ما قلته حينذاك، أسرعت إلى صلاح وأنـا أردد مسحورا.. نعم.. نعم.. وانطلقت في الشوارع أودُّ لو أطيـر، لو أعانق كل إنسان، وأقول له إن نادية قالت نعم، ونعم لأنها تحبني، وذهبنا إلى حديقة الشلالات والبحر، وفـى الحديقـة أخذت أقفز وأداعب الزهور وأهمس لها، وعند البحر فتحت ذراعي للأمواج، ووعدت البحر بأن أحضر إليه الحبيبة التي حدثته عنها كثيرا.. أي حب مجنون كان ذلـك الحـب؟!...

ترى ماذا فعلت الأيام بنادية؟.. أما زالت تذكرني؟.. أتذكر الصبي الخجول الذي كان يطيل النظر إليها صامتًا كأخرس؟

كنت أعتقد أنني لن أنساها ما حييت، وأنني سأعيش دوما على ذكرى حبها، عندما كانت السمراء الصغيرة تنتظرني في شرفتهم، وتترك دروسها لتحوم حولي وأنا أذاكر مع أخيها، عندما كانت تطلب مني أن أنشدها قصيدة من أشعاري كنت أود أن أقول لها إن في القلب جرحا لن يلتئم، وإنني أحببت، وسأحمل ذكرى الحب الخائب إلى نهاية العمر، لم أدرِ في تلك الأيام أن نظرتها الدافئة الحنون. وبسمتها التي ترقص فيها البسمات ستجعل القلب ينفض أحزانه ويغني ويرقص من جديد ولم يمضِ أكثر من عام على نهاية علاقتي بنادية.

توقعت عند الرحيل أن ينتهي هذا الحب الوليد، لم يخطر لي أننا سنلتقي صدفة في شارع من شوارع القاهرة لنبدأ رحلة العمر معا، لتعطيني أكثر مما حلمت به، سأحكي لك يا صلاح كل شيء كما تعودت، سأحكي لك عنها وعن أمل وباسل، وستحكي أنت عن جميلة، ترى أتزوجت من

جميلة؟.. الوجه الحلو يضفي عليه الشحوب والأسـى رقـة وعذوبة.

عندما كان يحدث ما يؤكد حبها له كـان يبـدو فرحـا ونشيطًا وراضيا عن كل شيء، وعندما كان يشك في حبهـا يتملكه السخط والأسى ويهجر موسيقاه ويمتنـع عـن لقـاء الأصدقاء، يوم خرج معها لأول مرة كنت أنتظره أمام بيتنا، وعندما لمحته يقبل مسرعا وعيناه معلقتان بشرفتي أسـرعت إليه، وما أن رآني حتى اندفع إلـي وعـانقني فـي قـوة، وأسرعت الكلمات من فمه فرحة ولاهثة.

مجدي يقول إن صلاح يحب جميلـة؛ لأنهـا مريضـة وحزينة، ولو عوفيت وتوردت فسينصرف عنها، لـم يحـب أحد من الشلة كحبي أنا وصلاح، رأيت مجـدي فـي أحـد الأزقة المظلمة المتفرعة من شارع إيزيس وقد علقت بذراعه فتاة قاتمة السمرة، غليظة الملامح، وضامرة، وفـي اليـوم التالي أخبرت صلاح فأسرع إلى بيت مجدي وناداه، وبادره بالقول:

- أمي تقول إن سرقت اسرق جملاً، وإن عشقت اعشق قمراً.

وأخذنا نسخر منه حتى أعلن أنه تركها وأنه كان يلهـو بها فحسب.

محسن كان يستمع إلى حديثنا عن الحب وفـي وجهـه الجاد المحدد الملامح تذوب بسمة مبهمة، كيف يكون حـب هذا الصديق؟... لو أحب فلن يتحدث عن حبيبته إلا نـادرا، ولكنه لن يتحول عن حبه أبدا.

شارع النخيل، بقالة المنشاوي، محل ماسـح الأحذيـة، المخبز الكالح العتيق، عم... بائع الفاكهة، ما اسمه؟... كمـا هو... ضئيل ومنكمش ومتناوم، كان يجلـس هكـذا ضـاما معطفه الأصفر، الرث، ومطوقًا وجهه الصغير بشاله الكبير، كان يبدو مستغرقًا في النوم وما أن تمتد يد إلى فاكهته حتـى ينتفض واقفًا، ويتقافز حول العربة فـي نشـاط، وفـور أن ينصرف الزبون يعود إلى كرسيه ويغمض عينيه من جديد.

أقترب من العربة، وأمد يدي إلـى الفاكهـة متظـاهرا بالرغبة في الشراء؛ فيهب من جلسته، ويقترب مني فأعتـذر إليه وأنصرف وأنا أغالب الضحك، ما يزال متناومـا فـي مكانه القديم.

شارع الفواكه...

حروف اللافتة الزرقاء كادت أن تنمحي، عم حسين البقال، كما هو، قصير ومتكور، أتقدم الأولاد بفوانيس رمضان وأطلب العادة فيضربني بالمنشة، ونبتعد عن المحل ونحن نزفه بالصياح ونعيره بعينه الواحدة، وجهه ما يزال عابسا، وجلبابه متسخ، لو أحييك يا عم حسين، لو أذكرك بنفسي، وأقول لك إنني ما عدت أكرهك كما كنت أفعل وأنا صغير، ما عدت أكره أحدا في حينا.

البيت الذي ولدت وعشت فيه حتى الثامنة، البيت ذو الطابقين والنوافذ الضيقة، لماذا كلما حاولت أن أتذكر الأيام التي عشتها في هذا البيت تتمثل لي جلستي أمام بابه وأنا مبتل الثياب؟

لم أكف عن التبول في الفراش إلا في السادسة عشر، على جوال الخيش في ركن الغرفة التي ينام فيها أخي وجدي على السرير أتقلب مغالبا النوم، ولكن النوم يخدعني، وفي الصباح أستشعر السخونة، وأشم زنخ البول فأنكمش على نفسي مقهورا ومتوجسا، أتابع أمي وهي تتحرك في البيت متحينًا الفرصة لأغافلها، وأسارع بخلع ملابسي ودسها بين

الثياب المعدة للغسيل، وتقبل أمي لتوقظني فـأحكم الغطـاء حول جسدي، وأتظاهر بالنوم، وتلح علي فأتمطى وأتثـاءب فتحدق في وجهي:

- عملتها.

وأتطلع إلى الوجه الساخط خائفًا ومستعطفًا، وتتلاحـق دقات قلبي.

- أنت لن تفلح أبدا.

في أوقات غضبها كانت تعيرني بالتبول علـى نفسـي، وتهددني بالفضيحة أمام الجيران والأصدقاء، كثيرا ما كانت تشكوني لجارتها، تقول إنني أتشاجر مع الأولاد وأسبب لهـا المشاكل بينما أخي الأكبر هادئ ومطيع، وإن كـان نحـيلاً وصحته معتلة. نادرا ما أحسست بحنانها، في لحظات اشتداد المرض كانت تبدو قلقة عليّ، ولكن حنانها كان يبدو دومـا مقيدا ومشلولاً، كانت تجلس على الكنبة معظم النهار وتسند، رأسها براحتها وقد أغلق وجهها الأسمر وشـردت عيناهـا الفاترتان، كانت تشكو كثيرا من الصداع المـزمن وسـعال الربو الذى ينهش صدرها، وتتحسر لأن الابنة الوحيدة التـي

أنجبتها ماتت في الخامسة وكانت تتمنى أن تعيش لتساعدها في أعمال البيت، أبي قلما كان يشكو، كان يجلس صامتًا بوجهه الصغير المغضن، وعينيه القلقتين المتوجستين يفكر في أعمال النهار، وفي الأرباح والخسائر، حديثه دائما عن العمارات التي يشيدها وعن عماله الخبثاء الكسالى كما كان يصفهم، بعد وجبة عشاء دسم أو عندما يحقق ربحا كبيرا تصفو نفسه، وترتخي تجاعيد وجهه، ويحكي لنا عن أيام العوز التي عاشها مع أسرته في الصعيد، ورحيله إلى الإسكندرية في الثالثة عشر ليعمل فاعلاً مع أبناء بلدته، والمشقات والإهانات التي تحملها حتى أصبح بناء ثم مقاولاً، ويخبرنا في تفاخر أنه كان يقتصد القرش ونصف القرش حتى كوَن رأسماله، ويختفي القلق من عينيه الصغيرتين، وتعانقانا في حنو:

- لمن أتعب وأشقى؟.. من أجلكم أنتم.

وتشرد عيناه، ويعود إليهما القلق والخوف:

- لا أحد يعرف ما يأتي به الغد، القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود، ومن لا يملك قرشًا لا يساوي قرشًا.

كثيرا ما كان يخطر لي وأنا أتأمله أن سياطًا غير مرئية تجلده باستمرارفيعدو ويعدو بلا توقف، وكثيرا مـا أشـفقت عليه وتلمست له الأعذار وأنا أفكر في هذا الخاطر.

عندما كان يعطي نقودا كانت أصابعه تقبض عليها بشدة وبرغبة في استردادها... خذ.. خذ يا ابني... لا أحد يأخـذ من الدنيا شيئًا.

ويفتح الواحد من عماله كفه ليجد أجرا ضـئيلاً فيحـتج أو يثور فيصيح فيه أبي، ويسأله عما فعله طول النهار.

عم محمد بوجهه الأسود الهضيم، وجسده الناحل المعتل يشوح لأبي غير آبه لصياحه فيغالب أبـي غيظـه ويبتعـد مشوحا بيده، عم كريم فوق السقالة بوجهه المسطح الملامـح المهموم، وعينيه العمشاوين المقـرحتين ويـداه تتلاحقـان بالطوب والمسطرين والعرق ينضح منه، وأنا أسارع برص الطوب المشبع بالمياه، وصيحات محمود الأخـرس، دائمـا سريع ولاهث ولا يتوقف لالتقاط أنفاسه، وويصا النجار يعمل في صمت وقد انحسرت طاقيته عن شعيرات قليلة من رأسه الأصلع، أناوله الأخشاب وأعدل المسامير القديمة وقد انتقلت إليّ عدوى صمته، ويندفع في قدمي مسمار صدئ فأنتزعـه

وأبول على الجرح كما علمني ويصا، وفي الظهيرة ينتحي عم محمد ومحمود الأخرس ركنًا ويستغرقان في شد أنفاس الجوزة المعمرة وينظر إليهما أبي، ويمصمص بشفتيه في سخط مستخف.

في نهاية اليوم أكون متربا ومتعبا، وتقع عيناي على أخي النظيف المهندم يجلس إلى جانب أبي فيتملكني الغضب لأنه محكوم علي بالعمل بعد خروجي من المدرسة وفي الإجازات.

أقول لأبي إنني ضقت بالعمل الشاق وسأكف عنه، سأتساوى بأخي فيثور ويتهمني بالعقوق، ويقول إن صحة أخي لاتحتمل وإنه يقوم بالأعمال الكتابية.

- رأفت سيكون بناء أو نجارا.

وتقول أمي:

- لن يفلح في شيء، يبول على نفسه، ويضيع وقته في قراءة الكلام الفارغ فماذا تنتظر منه؟

ويستبد بي التحدي فأذاكر وأذاكر كي أنجح وأتفوق على أخي.

إيه يا أمي ويا أبى.... هـل أفلحـت الآن؟... طبعـا تعتقدان أنني لم أفلح ولن أفلح أبدا، مازلت في نظركما الابن المارق الأحمق الذي يبدد عمره في الكلام الفارغ، ماذا كان يمكن أن يكون مصيري لو لم ألتق بالكلمة في صباي؟

لكم أدين الكلمات والألوان و الأنغـام، كانـت الأيـام الرائعة، أيام التحدي والشوق والإصرار، الأيام التي خلقـت مني كائنًا جديدا.

أتخبط وحيدا وحزينًا وحائرا، يفجعني القـبح والقسـوة والشراهة والخنوع، وتعذبني أسئلة عنيدة بلا إجابات وفجـأة ألتقي بالكلمة، وتفتح لي أبواب حديقة الفن الرائعة فأفرح بها، وأنطلق فيها طفلاً يمد ذراعيه في تشوف.

تتفتح عيناي، وألتقي بإجابات الكثير من الأسـئلة التـي عذبتني، ويتندى القلب وتداعبـه أرق وأعـذب المشـاعر، وأعيش أزهى الأفراح وأثراها، والحزن النبيل الذي يفجر في القلب الجسارة فتولد الأحلام والرؤى، وأتوق إلى كل ما هو نبيل وإنساني، الحب والصداقة والفرح والبسالة.

وينبجس النبع بنفسي، وتترنم شفتاي بأشعاري فـأفرح وأفرح بها، وتتحقق أحلى الأمنيات، ألتقي بالقلب البكر الذي يفيض بحبي فتفيض الينابيع وتفيض.

أستشعر قرب الحبيب فأغني في فرح، تتهامس عيوننا، تتناجى، تومئ بميلاد أفراح جديدة:

- أنشدني قصيدة.

وأنشدها أشعاري والأشعار التي أحبها، أحـدثها عـن العالم الذي يتخلق في رحم الأيام القادمـة، وأمـام عينيهـا الفرحتين وبسمتها المضيئة أحلـم وأحلـم، أرى المهرجـان المقبل على محفات النور مزدهرا بالوجوه المشرقة، والعيون الذكية، والضحكات المغتسلة في رحابة الصدور، بالهامـات الشامخة النبيلة لا تثقلها القيود، ولا تترك السياط أثرا داميـا عليها، وأتوق لأن أعطي العالم و أعطي:

- قلبك الملكية الخاصة الوحيدة التي أحرص عليها.

وتطير ضحكاتنا وتنطلق طيورنا البيضاء.

وأحمل كلماتي وأنطلق بها كي تنشر وتصافحها العيون الصديقة فتجابهني الجدران الصلدة

- هذه لا تصلح لنا.

- خفف من حدة كلماتك .

- احذف هذا البيت، احذف هذه الفقرة

وأضم الكلمات إلى صدري، أرفض أن يمسخ أطفـالي، وأندفع، وأندفع، أتحدى الجدران، وأحـرك النقمـة عليهـا في كلماتى.

تمتد أمامي طرق صهدية بلا نهاية، وينتصب الأشـباح وسماسرة الكلمات وجلادوها، وتحاصرني الجدران فأتشـبث بالكلمات وأتحدى.

أعود متعبا إلى الحبيبة فتغسلني ببسمة ندية، وتضـمني عيناها الحانيتان، تهمسان لي:

- الأيام الحلوة قادمة.

وفي دفء أحضانها تتقد الجذوة بداخلي، وأنطلق الـى المرافئ البعيدة وتنتشر أولى الكلمات على صـفحة صـغيرة وحييه فنفرح بها، وتقول حبيبتي:

- ألم أقل لك إن الكلمات الصادقة لا بد وأن ترى النور؟

وننطلق معا...

نفتح أحضاننا وقلبينا للعالم، كل العالم، ونفرح بالناس والأشياء بدهشة وفرح الأطفال.

وفي المؤتمر الكبير، على المنصة الرسمية يجلس الكهنة بأقنعتهم البراقة وأرديتهم الموشاة، يذبحون الكلمات الطيبة، ويزينون الأصنام الجوفاء فأنتفض ثائراً، أعري الزيف وأكشف حقيقة المعبود، وفي الليل تنهش الطرقات الفظة باب بيتي، وتقتحمه الوجوه الحجرية، وتحاصرني عيون الحقد، وأرى العينين الحبيبتين الباسلتين فأغالب الخوف وأتشامخ وأعلن كلماتي فتخطفني الأشباح إلى السراديب المظلمة.

وفي السراديب، في قلب الصرخات والأنين والحشرجات تفتح عيني على الحقائق الجديدة، أرى القاع الأسود الذي يدفن فيه الجلادون والوحوش القلوب والكلمات الطيبة، أكتشف أن الملايين من الوجوه السمر التي أحببتها

دوما تقدم من يضحون حياتهم في سخاء وبسالة فداء كلماتهم وأشواقهم، وتفرز أيضا الجلادين بقلوبهم الصخرية.

وفي الزنزانة الضيقة يأتي إلي العالم، وتزحف المسيرة الطويلة المثقلة بالعناء، وتبعث أحـداث وخبـرات صـباي فأكتشف صدق كلمات محسن التي كنت أجادله فيها ولم أكن قادرا على وعيها، وأمام عيني ينقسم العـالم الواحـد إلـى عالمين، عالم أبي وأخوته الكبار، و عالم عم محمد وويصـا وكريم وكل المتعبين، وأدرك أن العالمين لا يلتقيـان، وأنـه حتى يسود العالم الطيب على كوكبنا لابد وأن يختفي العـالم الآخر، وأتبين أن الكلمات المتسامحة والمحبة للجميع عاجزة ومشلولة بل وقد تصبح سـياطًا تجلـد ظهـور المقهـورين وأجدني في مفرق الطرق فلا أتردد في الاختيار، وتطل عليَ الوجوه المكدودة الصابرة، وتضيء بسـمة حبيبتـي رايـة للبشارة فاندفع في الدرب الجديد.

وتمضي أعوام الاعتقال الثلاثة فرحـا بتفـتح عينـي، وبالوجوه الكثيرة الجسورة التي اكتشفتها وأحببتها، وبعينـي وكلمات حبيبتي تقول لي أنا معك أبـارك الاختيـار وقلبـي تميمة الأمان.

وأخرج لأندفع في الطريق الوضيء، أتغنـى بكلمـات جديدة، وأعمل من أجل عالم جديد، وسرعان ما تتلقفني أعتى الأزمات، وأجدني متخبطًا وضائعا في الضباب.

أرى الرايات التي زينت بدم الطيبـين تتهـاوى أمـام الأصنام المعبودة، والسحن والشارات النبيلة تستبدل بأوشـام الأرقاء والعبيد، وفرسان الأمس البواسـل يتحولـون إلـى نخاسين وقوادين، وأتخبط مفجوعا في اليم العاصف، أستنجد بالوجوه التي أحببتها وبالكلمات التي روتني وآمنـت بهـا، بالانغام الشجاعة تتناهى إلي من أقاصي الأرض، وتصفعني الأمواج، تطوح بي لأجدني في النهاية في صحبة المتعبـين على الشاطئ.

أحاول أن أفيق، أن أضم أشلاء الأحلام وأسترد الـوهج القديم لأقتفي آثار الذين وصلوا إلى الشاطئ أقوياء، وأتحامل على نفسي وأمشي متعبا وممرورا على الشاطئ، وعندما تطأ قدماي الدرب، وترى عيناي بداية الشروق أكون قد أصـبت بالمرض وشعرت بالانتهاك و الهزال فأتسكع مثقل الخطـى يشوب الشجن تمتمات شفتي المتعبتين.

يا للرحلة!!... أين الوهج الذي كان يشعل القلب ويفجر فيه البسالة؟. أين الإصرار الذي كان يضحك أمام العقبـات والسدود؟... حتى اليقين بدور الكلمات المكتوبة، حتى اليقين بقدرة ينابيع حديقة الفن على الري بدأ يرتجف بقلبي، محنة، أزمة عابرة، ستنقضي حتما، سيزول المـرض العـارض، سيزول الصدأ عن عيني ومشاعري وكلماتي، يقيني بحتميـة الشروق لم يهتز، إيماني بالطريق الذي اخترته لم يـرتعش، لم أستبدل شارتي، ولم أزيف الكلمات، مازلت أحمـل فـي أعماقي الكثير.

محل والد أمين عبد الفتاح، يبدو أن هذا الشاب الصغير أخو أمين، طويل ونحيل مثله... بين أجولة العلافة ينـزوي أمين بنظارته السميكة وأنفه الكبير وجلبابه الرث، يقرأ بقايـا الكتب والمجلات التي تباع فيها العلافـة، ويكتـب الشـعر؛ ويتندر بوالده الذي أنجب ثمانية أولاد يعجز عـن تـربيتهم، وفي المساء نسير معا في شوارع حينا أستمع لشعره وهـو يخب في سيره ويميل بقامته إلى الأمام، شعره يرق فيغـدو همسا وحفيفًا أو يندفع هادرا كالشلال، يقول إن الشعر هـو الزيت المقدس الذي يضيء قناديل قدس الأقداس فـي قلـب

الإنسان، منذ سنين لم أقرأ له شيئًا، لم يمكث طويلاً بالقاهرة، عامان وأفعمت نفسه بالخيبة والمرارة.

في الندوات الأدبية يشير إلي الكتاب الرسميين:

- هذا محافظ الأدب المصري، وذاك سجانه.

في لقائنا الأخير أراه مشتبكًا في نقـاش حـاد بإحـدى المجلات:

- المحترم أمسك ساطورا وانهال على القصيدة يقطـع فيها دون حس حتى يمكن نشرها.

وتذكرني عصبيته وتشـويحه بيـده بأمسـيات حينـا فأضحك، وأحاول أن أخفف عنه، أنصحه بالصبر فيسخر من تفاؤلي الساذج، ويقول:

- النشر حق للكتاب الرسميين، ولن أكون أبـدا كاتبـا رسميا.

إيه أيها الصديق، زاد الحصار على الكلمات الصـادقة إحكاما، أصبح النخاسون والمهرجون وتجار الكلمات العطنة سادة المسرح، ماذا فعلت بك الأشعار يا صديقي؟ هل عـدت إلى حينا لتحتمي بالحضن الدافئ؟.. وأنا بمن أحتمي؟

المدرسة الأولية، مدرسة التربية الحديثة، المبنى القـديم والسور المرتفع، كنا هنا معا أنا ومجدي وكمال، مجدي كان مرحا وذكيا ومشاكسا، كنت أشاركه شقاوته وفجأة تسـيطر علي كآبة لا أعرف سببها فأكف عن اللعب، عنـدما كنـت أتشاجر مع الأولاد كنت أضربهم بقسوة ثم أنـدم وأستشـعر الذنب، كمال لم يكن يشاركنا شقاوتنا ومشاكساتنا، كان يتنازل في سماحة عن طعامه للتلاميذ، ويطيع المدرسـين... بعـد سنين يقول كمال:

- أنا لا أحب الخيال ولا المشاكل.

ويسأله مجدي بخبث:

- ولكنك صديق رأفت ومحسن.

- رأفت صديق طفولتي.

- ومحسن؟

وينظر كمال إلى محسن في إعجاب:

- محسن رجل.

الشرفة الكبيرة تطل على الفناء، فصلنا كان فى الطابق الأرضي، الشيخ فتح الله يخلع عمامته، ويجفف عرق وجهـه المورد بمنديله الأبيض، ويرجو التلاميذ بمسة متسـامحة... أبلة عايدة السمينة السمراء العانس تعاملنـا بحـزم طيـب، تستضيفنا أحيانًا فى بيتها بحي غربال، تستمتع بتقديم الطعام والحلوى لنا، وتطلب منا أن نشاركها غناء أغنيتها الأثيرة.

على بلد المحبوب وديني زاد وجدي والبعد كاويني

ها هو بيت مجدي، البيت الصغير الأبيض ذو الطـابق الواحد، يتميز عن البيوت القديمة وغير المطلية التي تحـيط به، إيه أيها الصديق، أوحشني مرحك وضحكاتك الصـاخبة، كثيرا ما كنا نتشاحن ويصل بنا الأمر إلـى حـد الخصـام، ولكن ما أن يمر يوم أو يومان حتى يذهب أحدنا إلـى بيـت الآخر، ويصفر له وسرعان ما يضمنا عناق حميم.

- أنا فتوة الشلة وحاميها، وكمال ممولها، أمـا رأفـت وصلاح فلا جدوى منهما، لايصلحان إلا للأحلام الفارغة.

ويبتسم محسن، ويقول له:

- أجسام البغال وعقول العصافير.

في عودتنا من شاطئ البحر يقترح مجدي أن نعبر الممر الضيق الطويل الذي يفصل بين القبور في الشاطبي، ويرفض كمال وصلاح، وأتذكر أحداثًا من حكايات جدتي فأرفض أنا الآخر، ويتقدم محسن دون أن ينطق بلفظ، ويلحق به مجدي، وأقف مترددا أحدق في الممر الذي يضمه الصمت وغبشة الغروب، ويبدو بلا نهاية، ويصعب علي أن أتخلف عنهما فأتشجع وأندفع في إثرهما، وينطلق مجدي في الغناء بصوته الأجش المرتفع فأشاركه الغناء، وتتكسر أوراق الشجر تحت أقدامنا، وتصل إلى سمعي خشخشة الأوراق تعبث بها الريح فيرتجف قلبي وأختلس النظرات المتوجسة إلى سور القبور، أستشعر ارتجاف مجدي وارتعاش صوته وهو يعلو بالغناء بينما محسن يسير بقامته الربعة المستدقة وعلى شفتيه بسمة هادئة، وقرب النهاية ينفلت مجدي مسرعا فأعدو خلفه مناديا عليه، ويظل محسن وحيدا وباسما، ويسخر مجدي من جبن كمال وصلاح ولا يعلق محسن بلفظ.

النقوش البارزة تزين الباب الكبير والنوافذ، المدخل نظيف كما كان دائما عندما يفتح الباب سأقف صامتًا وأنظر في عينيه لأرى ما إذا كان سيتعرف عليّ للوهلة الأولى،

سيعرفني، سيطلق صيحته المشهورة ويهجم عليَ ليطوقني بذراعيه القويتين، سأضمه في قوة، سأضحك من جلسته القلقة وتشويحه الكثير بيده، وسننطلق معا إلى بقية الصحاب.

- من؟

- مساء الخير يا عمي.

- مساء الخير.

كبرت يا عمي، بهت سواد عينيك وارتخت غضون وجهك....

- ألا تعرفني يا عمي؟

- من؟

لا يمكن أن تتعرف عليَ بعد كل هذه السنين، ابن التاسعة عشر ذو القصة المهندمة أصبح في الرابعة والثلاثين، وانحسر شعر رأسه، وتركت الليالي آثارها على وجهه.

- أنا رأفت صديق مجدي.

- رأفت؟!... أوه.. أهلاً.. أهلاً يـا بنـي.. تفضـل.. تفضل.

مازلت تذكرني، الجلباب الأبيض، والبسـمة العطـوف الضيافة، والمسبحة، زادت نحافتك، وتحدب ظهرك قليلاً.

حجرة الصالون ذات الطراز العتيق، لـم يتغيـر فيهـا شيء، صورة مجدي بقصته الكبيرة وجبينه الضيق وعينيـه المشاكستين، وصورة الشيخ سيد درويش بشـعرة الهـائش، مجدي يغني أغاني الشيخ سيد بصوته الأجش فنقاطعـه فـي صخب، ونطلب من صـلاح أن يغنيهـا لنـا، نغنـى معـا " بلادي بلادي" فيختلج جسدي ويفيض الـدفء بصـدري، وتغرورق عيناي بالدموع، وأنت يا عمي كثيرا ما حدثتنا عن الشيخ سيد الذي استمعت إليه في شبابك، كنت تتكلم في حب وحماس عن دور أغانيه في ثورة ١٩١٩ التي شاركت فيها، عندما أخبرناك بعزمنا على التطوع في الحرس الوطني عام ١٩٥٦ هزَك الحماس وتذكرت أحداث الثورة البعيدة، وتمنيت أن تكون أصغر سنًا وأحسن عافية لتتطوع معنا، عندما أحجم كمال عن التطوع بحجة أن أخاه لا يستطيع العمل بمفرده في

المحل سلخته يا عمي بسخريتك الرقيقة الطيبة، كمال كـان الوحيد الذي تخاف من الشلة، كان...

- كبرت يا رأفت... كيف حال والدك؟

- بخير.

- وأحواله المالية... اتحسنت؟

- أصبح يملك أربعة بيوت.

أقول للشلة إن من يملك بيتًا يريد بيتين، ومن يملك بيتين يريد ثلاثة، ومن لا يملك شيئًا لا يتمنـى إلا السـتر فيقـول محسن إن والده العامل لا يملك حتى الستر، ويقلـد مجـدي حركات أبي فتغالب يا عمي الابتسـام، وتنتهـره وتـتلمس الأعذار لأبي، مجدي يقول إنني لا أجرؤ على أن أطلب من والدي عدة أشياء دفعة واحدة حتى لايثور ويتهمنـي بتبديـد ثمرة شقاء العمر، ويصطنع نظرة أبي الساخطة:

- طبعا.. طبعا.. النار تخلف رماد.

عندما أخبرت مجدي أنني أسرق أحيانًا من حافظة أبي تكدّر وجهه وقال في ضيق:

- لا.. لا.. لا تفعل هذا مرة أخرى.

- ولكنه لا يعطيني ما أحتاجه من نقود.

- ولو.. السرقة شيء قبيح.

الوحيد الذي أخبرته من الشلة كان مجدي، يوم حادثة السودان كنت قد سرقت خمسين قرشًا، يومها كنت يا عمي أحكم الآباء، مجدي كان الوحيد الذي لم ينل نصيبه من الضرب، حدثته عن غرابة الفكرة، أنا الذي فكرت في المغامرة، حلمت بأكل الغزلان وكبد الأسد في غابات السودان، كنت في الثالثة عشر، قررنا أن نسافر إلى القاهرة، ونلتحق بأي عمل حتى نقتصد مصاريف السفر إلى السودان، وباع مجدي كتب الدراسة، وسخر محسن من الفكرة، ورفض أن يشاركنا في تنفيذها، ووافق كمال لأنه كان على خلاف مع أسرته حينذاك، وكتب رسالة لأبيه يودع فيها الأسرة ويخبرها بالرحيل، وألقى بها في حجرة البواب، وعندما عدنا إلى بيوتنا في عصر نفس اليوم لأننا لم نتمكن من تدبير أجر السفر إلى القاهرة كانت أسرة كمال قد عثرت بالرسالة وافتضح أمرنا، وضرب علقة طيبة فاعترف بكل شيء، وفي المساء اجتمع الآباء الاربعة في بيتنا ونلت علقة

ساخنة.. كم من الأفكار الغريبة خطرت لنا، كنا أنا ومجـدي فرسان الأفكار المجنونة... أين مجدي؟

- عمي... أين مجدي؟

- مجدي؟!... إيه يا ابني.

- ماله؟

- هاجر.

- هاجر؟!.. إلى أين؟!

- إلى كندا.

- متى؟

- منذ أربعة أعوام.

هاجر؟!... وأنـت أيضـاً يـا صـديقي؟!.. اجتاحـك الوباء؟... هان عليك الأهل والأحباب؟... هان عليك غـيط العنب؟... كيف طاوعك قلبك؟

- ولِمَ هاجر؟

- لا أعرف يا ولدي.. صمم فجأة، ولم نستطع أن نثنيه عن عزمه.

- وأخباره؟

- لم تصلنا رسائل منه منذ أكثر من أربعة شهور.

ماذا جرى لك أيها الصديق؟... أين أنت أيها الطيار؟

- ألم يصبح طياراً كما كان يتمنى؟

- أبدا.. مجدي تغير كثيرا عما كنت تعرفه.

مجدي المرح المنطلق تغير كثيرا؟!... هل سنلتقي يوما؟..

- الجميع يتكلمون عن الهجرة هذه الأيام.

إيه يا شيخ سيد... مجدي ما عاد يغني أغانيك، ما عاد يغني" بلادي بلادي" لعله يغنيها في الغربة، لعله يذكر الأحباب والصحاب، ماذا يا عمي؟... وجهك ساهم وعيناك شاردتان، أرحل خيالك يبحث عن الابن الغائب في البلاد البعيدة؟... علي أن أطوي صفحة هذا الصديق إلى نهاية العمر، أغلب الظن أننا لن نلتقي مرة أخرى، هيا يا قدمي، غادري موطنًا عزيزا من مواطن الصبا، وداعا يا عمي... وداعا يا شيخ سيد، وداعا أيها الصديق النزق.

إيه يا شارع الفواكه، ما عاد مجدي يسير فيك، ما عـاد يسير في شوارع حينًا، يضحك ويصيح ويشوح بيديه، كـان يقول إنه لا يستطيع أن يبتعد عن غيط العنب ولو لأسـبوع واحد، يوم سارت كتيبة الحرس الوطني التي كنا فيها عـام ١٩٥٦. في اسـتعراض بشـوارع الإسـكندرية وصـفقت الجماهير وهتفت لنا في حماس اختلج كل كياني وازدحمـت عيناي بالدموع، وكان مجدي يسير إلى جواري وقد التمعـت عنياه بالدمع والإصرار فمددت له يدي فشد عليها في قـوة، هل يمكن أن أضطر يوما إلى الهجرة؟... شجرتي تضـرب بجذورها هنا فهل تقتلعها ريح عاصف وتلقي بها فـي أرض غريبة؟.. المدرسة الأولية...

" على بلد المحبوب وديني زاد وجدي والبعد كاويني

....

" يا مسافر على بحر النيل دنا ليه في مصر خليل "

" من حبه ما بنام الليل   على بلد المحبوب وديني"

المدرسة الابتدائية بالقرب من هنا، في شارع الأنهـار، لماذا لازمتني هذه الوجوه الثلاثة؟... محمود أفندي النـاظر،

القصير، العصبي، ذو اللهجة الصعيدية، لا يفـارق عصـاه أبدا، ويستخدمها في ضرب التلاميـذ واسـتعراض طـابور الصباح، والتلميذ الممصوص بعينيـه الخبيثتـين، ووجهـه المزدحم بآثار الخدوش، وملابسه المتسـخة ببقـع الحبـر، كان يختطف الأكل والحلوى من التلاميذ ويفر بها، والتلميـذ الأسمر الهادئ الحريص على نظافـة ملابسـه وكراسـاته، كان يجلس في الصف الأول، كنت أسخر منه، وأغـار مـن نظافته، كنت تلميذًا متمردا ومشاكسا لكنني لم أرسب أبـدا، هل كان يخطر ببال الصبي الصغير الذي يعابـث زمـلاءه ويشاكس مدرسيه كل هذه الرحلة الطويلة؟... أغلـق محـل والد أمين عبد الفتاح.. هل يمكن أن نلتقي أيها الصـديق؟... أيمكن أن نسير معا في شوارع غيط العنـب أسـتمع إلـى أشعارك كما كنا نفعل في صبانا؟... هل تسرب لون الرمـاد ومذاق الأسى إلى شعرك كما تسرب إلى كتاباتي؟... كيـف وصلت أنا إلى هذا الحال؟... كيف خبا الـوهج وانسـربت الطاقة، ووهن العزم؟... عامان مـرا دون أن أكتـب شـيئًا حقيقيا، عامان وأنا أعيش حياة غريبة، أية أيام هذه؟!

في الصباح أستيقظ مصدّع الرأس، مثقل العينين، وأرتدي ملابسي على عجل، أسرع إلى محطة الأوتوبيس المزدحمة، وعندما ألمح الأوتوبيس مقبلاً أتحفز، أستجمع قواي وخبرتي للمعركة التي سأقدم عليها، وقبل أن يقف أندفع في التقاتل كي أسبق الآخرين وأنقض على مقعد شاغر، وإذا فزت ببغيتي تنهدت بارتياح ورضى كأنني أحرزت انتصارا كبيرا، وأتعامى عن المسنين والنساء حتى لا أجبر على التنازل عن مكاني، وإذا فشلت محاولتي سارعت باحتلال موقع أتحصن فيه بمنأى عن سحق الأقدام، قد أسحق أقدام الآخرين، وأدفعهم في جفاء قبل أن يدفعوني ويسحقوا قدمي، ويعتصرني أوتوبيس ليسلمني لآخر حتى أصل إلى العمل وقد أنهكت قواي واختلطت مشاعري.

وتستقبلني صلعة رئيسي ببريقها المستفز، وينظر الرجل في ساعته، ويلوي شفتيه في سخط هازئ، وأبتلع غيظي وضيقي، أحاول أن أتخلص من لزوجة نظراته وهي تلتصق بي وتربك خطاي، وأجلس إلى مكتبي لأبدأ في توجيه أسئلة معادة ومحفوظة:

- منسوب إليك التأخر عشر دقائق عن المواعيد الرسمية... منسوب إليك سب رئيسك... منسوب إليك سرقة صابونة.

وأسجل الإجابات في سأم وفتور قبل النطق بها.

أضيق بكل شيء، بالزميل الهامد النائم العينين بفعل المخدر، والزميل الممتلئ بشفتيه الشرهتين وهو يكوم أمامه السلع المستوردة ويحسب أرباحه وخسائره، والزميلين اللذين يتشاحنان معظم الوقت حول مهارة أندية الكرة والكلمات المتقاطعة والأغاني المفضلة، وأنظر في ساعتي بين لحظة وأخرى متعجلاً ساعة الانصراف لأسارع بالفرار متأهبا للمعارك الجديدة، ولأصل في النهاية مهدودا مهلهل المشاعر.

أمسك بالكتاب بآلية وفتور فترتمي الكلمات بلا حس في أعماقي الهامدة الجدبة، وتقبض البلادة على عقلي، أحاول أن أتشاغل بشيء، أنسج خيوط حديث معاد ومستهلك مع زوجتي، وسرعان ما أضيق بتفاهة كلماتي، ويخجلني إدراكي أنها تشعر بأزمتي وتعاني في صمت، أتبادل حديثًا مع أمل وباسل، أعابثهما وأحاول أن ألعب معهما لعل شيئًا يتحرك بداخلي، وما أن تمر دقائق حتى أضيق بصخبهما

وتساؤلاتهما الكثيرة، وتفلت مني ألفاظ جافة أستهجنها لحظة النطق بها لكنها تندفع مني برغبة في إيلام نفسي وإيلام مـن أحب.

أحاول أن أكتب وأنا أعرف أن للكتابة لحظاتها وانفعالها وتجربتها فيتعثر القلم، ويتوقف في أنامـل متعبـة تخافـت نبضها، وتبدو كلماتي جامدة وبلا حياة فأقول لنفسي إن النبع جفّ وإنني أجدبت فتزداد مرارتي وضيقي، وعنـدما تنشـر قصة من قصصي القديمة أستقبلها في فتور، وأتساءل عـن جدواها، وجدوى كل الكلمات المكتوبة.

كثيراً ما يستغرقني التفكير لساعات ثم أفيـق لأكتشـف أنني كنت أجتر أمورا صغيرة لم أكن ألتفت إليها من قبـل، وكثيرا ما يدور تفكيري قلقًا وخائفًا حول ضآلة المرتب وأيام الشهر التي لا تريد أن تمر، والأشياء التي نحرم منها، أحيانًا أضبط نفسي متلبسا بالتشدد في محاسبة زوجتي على طريقة إنفاقها بالرغم من إدراكي لحسن تدبيرها. خطر لي مرة أنني لو نظرت في المرآة لرأيت عينى أبي المتوجستين القلقتـين بل وتجاعيد وجهه، وكثيرا ما أثور على نفسي وأعنفها لكنني أعود إلى القلق والهم من جديد.

أحيانًا أحسُّ في البيت بأنني أوشك أن أختنق فأنفلت إلى الخارج لعلني أجد شيئًا يستفز عقلي ويوقد مشاعري، وأحدق في الوجوه فتبدو باهتة وعارية من أي إحساس، وتلوح العيون بركًا آسنة تنمو فيها الطحالب، والبسمات القليلة ملتوية ومتشنجة توشك أن تسقط من الشفاه، وترن الضحكات في سمعي كطبل أجوف، ويستبد بي الغضب والغيظ، وتتملكني رغبة في أن أقف وسط الناس، وأصيح فيهم، وأقدم لهم مرآة وجوههم، أن أشعل شيئًا فيهم لعلهم يندفعون بحياة حقيقية، وأظل أضرب في الطرقات وأتسكع بين المقاهي، وفي نهاية الليل أعود إلى بيتي مثقلاً بالمرارة لأسلم نفسي للأرق والهموم الصغيرة.

أحيانًا أسعى إلى لقاء بعض الكتاب من جيلي، وسرعان ما أنصرف عنهم حزيناً وأنا أدرك أن مأساتي هي نفس مأساة الكثيرين منهم، وأن الحصار الذي يضرَب حول كلماتنا وأشواقنا يمنع تدفق طاقاتنا فتتحول في داخلنا إلى كلابات تنهش فينا، وتحيلنا إلى ديكة محاصرة ينهش كل منها الآخر، وإذا تملكني العناد والرغبة في السخرية والعبث

فسعيت إلى إحدى ندوات الأدب الرسمي لا تمر دقائق حتـى يزدحم صدري بالغضب وأحسُّ بالاختناق.

كثيرا ما يخطر لي أنني ما عدت أرى الناس والأشـياء كما كنت أراهم وأحس بهم من قبل، فالأشياء تعبر أمامي في حياد بارد وقد فقدت جدتها ومذاقها، والناس يبـدون خـارج ذاتي وبعيدين عني، قد أسخط عليهم وأقسـو فـي انتقـادهم بالرغم من إدراكي أنهم مغلوبون على أمرهم، ويفتقرون إلى من يدلهم على الطريق، حتى حبي لم يعـد بدفئـه القـديم، لحظات الاقتراب قلت وسقطت في قبضة العـادة، وأنهـار الدفء التي كانت أمواجها تتداح فيما بيننـا جفـت، حتـى الأنامل أعياها السأم فلم تعد تشع بالحرارة أو تشف بالرهافة.

تحتويني بعينيها، تغالب أساها، وتفيض عليَّ من حنانها فأهرب منها وأنا أحسُّ أن نظراتي قد أمست باردة وجامـدة أعجز عن تشكيلها؛ فأفر بها حتى لا تراها.

كان فيها شيء خفي، سـحري، آسـر يشـدني إليهـا، شيء يولد في نفسي الفرحة لقربها، ويجعـل خلايـا عقلـي وقلبي تتفتح وتنتشي في وجودهـا، اختفـى ذلـك الشـيء، لا... لم يختفِ، أنا الـذي تغيـرت، عنـدما أرى بسـمتها

الضاحكة الآملة وعينيها الحانيتين يضنيني الألـم، ويعـذبني العجز إزاء ذلك الشيء الذي يذبل ويجف بداخلي، أهمُ بـأن أقول لها إنني ما عدت جديرا بعطائها لأننـي لسـت نفـس المحب القديم، والغريب أنني كثيرا ما أضبط عيني وأنا سائر في الطريق تستعرضان قامات النساء والفتيات، وتتحسسـان سيقانهن، وتتعلقان طويلاً بصدورهن، وعنـدما أتنبـه إلـى اشتهاء وشبق نظراتي أخجل من نفسـي وأحـسُ بالـذنب، لكن ما أن تمضي لحظات حتى تنفلت عينـاي مـن جديـد، تفتشان وتتحسسان.

أتساءل عما إذا كان كل حب لا بد وأن يمـوت يومـا، وعما إذا كان ما أعانيه هو سكرات موت الحب الذي أسعدني وولد في قلبي الفرح، وكم يعذبني التسـاؤل وأنـا مشـاول وعاجز إلى جوار من أحب، كيـف أصـابني المـرض؟... من أين جاءت الميكروبات التي تستشـري بـداخلي، حتـى جسدي أصبح منهكًا، تنوشه الآلام، وأصبحت قلقًا وموسوسا بالنسبة له.

خطر لي في الشهور الأخيرة، أنني في مفرق الطـرق، فإما أن أولد ولادة جديدة فأرى الناس والأشياء ببكارة الميلاد

الأول، وإما أن يتخافت النبض أكثر فأكثر لأجدني في النهاية قشة عاجزة ومستسلمة يدفعها التيار، ولد هذا الخـاطر فـيَ نفسي الفزع فقررت أن آتي إلى غيط العنب كملجأ أخير.

كنت أحيانًا أستنجد بأحداث صباي، كنت أستعيد مواقف أيام الإشراق والتوهج لكن التذكر لم يعد يجدي... إيه يا غيط العنب، يا موطن الأحباب والصحاب، يا مرتع الصبا وأرض الخطوات الأولى الفتية، كل سبل العلاج فشلت معي، لم يعد لي طبيب سواك لم يبقَ لي أمل إلا في الحضن الـذي كـان دوما خصيبا ودافئًا، الحضن الذي أعطاني الكثير، كنت أريد أن أعود إليك ومعي حصاد كثير، حصاد يقول إننـي كنـت دائما ابنًا وفيا وأمينًا لك، عندما بدأت أزمتـي كنـت أقـاوم الحنين إليك حتى لا أعود مريضا ومتعبا، ها أنذا قد عـدت فماذا ستعطيني يا حينا الطيب؟... إيه يا أصدقاء، هل أغتسل في أحضان حبكم الرحيبـة كمـا تعـودت أن أفعـل وأنـا صغير؟... أنا أعرف أن ميلادي هنا، ميلادي في بعث الأيام الخضراء، وستبعث كل الأيام الخضراء، وأعيش الربيع من جديد.

سألتقي بمحسن وكمال، سيدلانني على بيـت صـلاح، ستعانق يدي محسن، وسأقول له إنني معه في نفس الطريق، ستضيء عيناه وتكبر بسمته، ويشد على يـدي كمـا تعـوَد أن يفعل عندما نلتقي في موقف واحد، وسنستمع إلى أنغـام الحالم الآخر، سأغتسل بالأنغام، لعله أبدع المقطوعـة التـي لم يعزفها موسيقار، إيه يا بيوت حينا، العاشق القـديم يعـود إليك، العاشق القديم مازال وفيا لك، بعد قليل لن أسير إلـى جوارك وحدي، سيكون معي كـل الصـحاب، سـتطربين لضحكاتنا من جديد، سنذكر ذلك الشقي ونلومه لأنه هـاجر، لماذا هاجرت يا مجدي؟... أهانت عليك مراتـع الصـبا؟... أهانت عليك الوجوه السمر الحبيبة؟... لو تشرق هذه الوجوه وتبتسم، لو ترتفع العيون المنكفئة وتعانق الضيق، لـو كـان بيدي ما فارقتك يا حينا الحبيب، لو كان بيدي لظللت دومـا موطنًا لكلماتي وأغنياتي، لكنك ستعيش في قلبي مهما بعدت عنك.

عينا محسن تغيمان بالدموع، تقولان يوم الرحيل:

- لا تنسنا، سنذكرك وننتظرك دوما.

وأتملى الوجه الحبيب، الوجوه الحبيبة، ويفـيض قلبـي بالدموع:

- أبدا لن أنساكم، لن أنسى أروع أيامنا.

أنا لم أنسكم يا أصدقاء، كانت ذكرياتنا المرفأ الذي ألوذ به في ساعات الضيق، كان نزقنا وأحلامنا زادي دوما وأنـا بعيد عنكم، صحيح أنني تغيبت كثيرا لكنني لن أفعلها مـرة أخرى، سآتي كثيرا إلى النبع الصافي، سآتي لأتزود للطريق كلما قطعت شوطًا فيه... من؟... خليل؟... نعم... هو بعينه الذي يقف على الناصية، الوجه الأدكن بملامحـه الكبيـرة، والشعر الأكرت المهوش، والشارب الكبير الكث، لم يتغيـر فيه شيء، لماذا لم يخطر ببالي وأنا أمضي في شوارع حينا، لأسرع إليه، لا بد أنه ما يزال يذكرني، وهـل ينسـى ليلـة أن جاء إلى مسكني في ساعة متأخرة يحمل سـؤالاً جديـدا ومعتذرا لأنه لـم يسـتطع الإنتظـار حتـى الصـباح؟... فور عودته من عمله في حمل الطوب على شاطئ الترعـة أو جمع القمامة خارج حينا يفتش عني وعن محسن ودومـا يكون معه سؤال يبحث له عن جواب، عندما يقتنع بالإجابـة

تضيء عيناه بالفرح، ويفرك يديه مبتسما، أحيانًا يهز رأسـه في رفض:

- لا.. لا.. ليس الأمر بهذه الطريقة.

ويسخر منه مجدي وكمال. ينصحانه بأن يـريح عقلـه فيقول:

- لا بد أن نعرف كل شيء.

ينزوي في ركن بمحل فهمي الحلاق، يخالسني النظـر ثم ينتقل إلى جانبي مرتبكًا، ويقول بصوت خافت:

- أنت تقرأ الكتب ولا بد أنك تعرف كل شيء.

وأنظر في عينيه الواسعتين المرهقتين تحت جبين ضيق ومجعد:

- أقرأ الكتب لكنني لا أعرف كل شيء.

ويسألني كيف يمكن أن تـدور الأرض الكرويـة كمـا يقولون دون أن يسقط الناس والبيوت، وينفجر كمال مقهقها، ويقف فهمي أمامنا بساقيه المقوسـتين المتباعـدتين يطـوح بذراعيه ويتعالم بأي كلام، وأستجمع الكلمات لأشـرح لـه

بطريقة بسيطة حقيقة الجاذبية، ويتفرس في وجهي مختبـرا صدق كلماتي، وتلتمع عيناه، ويبتسم بسمة كبيـرة راضـية، ويقدم إليَ السيجارة الوحيدة التي معه، ويلحُ عليَ في قبولها، إنه يسرع مبتعدا، انتظر يا خليل، كان ينبغـي أن أتـذكرك يا أخي، قامته محنية وملابسه ممزقة.

- خليل.

ها هو يتوقف، انتظر

- كيف حالك يا خليل؟

يحدق إليَ، لا يمد يده ليدي، لعله نسيني، نظراته حادة، بريقها غريب، ما هذه المسبحة التي يطوق بها رقبته؟

- خليل... ألا تعرفني؟... أنا رأفت.

لا يختلع له جفن، نظراته تتوجس، تستريب، يهم بـأن يستدير وينصرف، لا بد أنه نسيني، سأذكره بصداقتنا:

- خليل... لا بد أن نعرف كل شيء.

- لا بد أن نعرف كل شيء... لا بد.

يبدو أنه... لا... لا...

- أنا لا أعرف شيئًا... لا أعرف شيئًا.

يمضي بقامته المحنية، شفتاه تتمتمان.

أهذه نهاية رحلتك أيها الصديق... أهذه نهايـة التفكيـر والتساؤل؟... كنت تظن أن في الكتب حـلاً لكـل الألغـاز، عندما كنت ترى كتابا معي أو مع محسـن كنـت تختطفـه وتمسك به باحترام يقارب التقديس، وتحملـق فـي حروفـه المستغلقة، وتهيم بعينيك، وتحلم بتعلم القراءة حتى تقرأ الكتب وتعرف كل شيء، هل وفى محسن بوعده فعلمـك القـراءة والكتابة؟...

مقهى عمال البناء، الوجوه المنزوفة، والعيون المنطفئة، والجلاليب الرثة، والأنفاس التي تُمتَص من أعماق الجـوزة فتهيج السعال المشروخ، الوجوه التي لازمتني دائما وحددت طريقي، في الركن بداخل المقهـى كـان يجلـس الصـديق العجوز، عم محمد الحداد، أسود، قصـير، جـاف، أسـنانه خربة، وعيناه منطفئتان في بياض عكرته صـفرة المخـدر، في أيامه الأخيرة أصبح وجهه في لون الزيتـون، وبـرزت عظام وجنتيه وصدغيه، وزادت نوبـات سـعاله الممـزق،

إلى جواره كان يجلس ابن زوجته المتوفاة بجلبابه الأبـيض النظيف، كان العجوز يربت عليه ويقول:

- سأدخله المدرسة وسيكون أفنديا مثلك يا رأفت.

وأرجوه أن يكف عن تعاطي المخدر فيضحك ضـحكته المهمشة، ويقول إن الأيام لا يمكن أن تمضي دون تهويمـة الأنفاس.. ألحُ عليه في أيامه الأخيرة حتى يعرض نفسه على طبيب فيبتسم بسمة متعبة ومتسامحة، ويشوح بيده:

- لن آخذ عمري وعمر غيري.

وأنصت إلى حديثه، إلى حكمة خمسين عاما من العمـل الشاق، يسخر من أبي سخرية مشفقة، بلا حقد أو حسد، يقول إن حب المال إذا سرى في الدم لا يمكن الخلاص منه أبـدا، ويوما بعد يوم يزداد البخيل بخلاً وجشعا ثم يبتسم ويتعجب؛ لأن أبي أنجب ابنًا يكره البخل والبخلاء.

مات قبل رحيلنا بشهور، لم يخرج أبي فـي جنازتـه، شاركت فيها أنا ومحسن.

- رأفت.

من؟.. من تعرف عليَ في حينا؟!.. أمين!.. أمين عبد الفتاح!

- أهلاً.. أهلاً.. أهلاً.

تذكرتك وها أنا ألتقي بك أيها الصديق، لأضمك أيها الشاعر، أول عناق يا غيط العنب.

- أين أنت أيها الشاعر؟.. أوحشتني كثيرا.

- وأنت أوحشتني يا رأفت... أخيرا تذكرت غيط العنب؟

- دائما أتذكر غيط العنب وأحنُّ إليه.

الوجه الأسمر، والنظارة السميكة والأنف الكبير المستقيم، الجبين العريض، والشعر القصير المجعد، غارت وجنتاك، وزادت نحافتك.

- أصبحت عجوزا يا أمين.

- الأيام... الأيام يا صديقي... تعال... تعال.

- ولكن......

- لم نجلس معا منذ سنين، لنجلس قليلاً في هذا البار.

لم يكن هذا البار مواجها لمقهى عمـال البنـاء، أودُّ أن أجلس معك يا صديقي اشتقت إليك وإلى أشعارك وسخرياتك لكن... قد يراني أحد من معارفي، أهـل حينـا يسـتنكرون ارتياد مثل هذا المكان.

- لنجلس في مكان آخر... لنتمش معا.

- لا.. لا.. هناك زجاجة لم أنتهِ منها.

زجاجة لم تنتهِ منها؟!... لم تكن تشرب الخمر، حتـى السجائر كنت تضيق برائحتها، ما زلت تخب فـي سـيرك، قامتك الطويلة الناحلة تميل إلى الامام، البار خـانق، يعبـق برائحة الخمر، ويزدحم بالدخان.

- عرفتك من مشيتك، لم أصدق عيني للوهلة الأولى.. ماذا تشرب؟

- لا شيء..

- ألا تشرب كأسا من أي نوع؟

- لا... شكرا.

في المرات القليلة التي شربت فيها كانت الخمر تستدر كآبتي، كانت تولد في نفسي الرغبة في البكاء لأسباب لا أدريها، توهمت أن الخمر يمكن أن تحرك في غفلة من العقل شيئًا في أعماقي الراكدة لكن عقلي كان يستعصي عليها، تعب الخمر، تلتهم الأنفاس في شراهة وسرعة، اللفافة تكاد تحرق إصبعيك، أصابعك ترتجف.

- كيف حالك يا أمين؟

- أعيش...

- منذ سنين لم أقرأ لك شيئًا.

- دعنا من هذه السيرة... حدثني عن أحوالك... أتزوجت؟

- أجل... وعندي أمل وباسل.

- أنا لم أتزوج... يبدو أنني لن أتزوج أبدا.

ثمة شيء منطفئ وهامد في عينيك، شفتك السفلى تتدلى في سخط .

- متى جئت الإسكندرية؟

- الليلة فقط.

- وكيف حال القاهرة... أما زلت تكتب؟

- وكيف أهرب من قدري؟!

- أنا هربت، تخلصت من اللعبة الخائبة.

ماذا؟... ألم تعد تكتب الشعر؟! مستحيل!

- منذ قليل تذكرت الأمسيات التي أمضيناها في شوارع حينا أستمع إلى إشعارك، ونتحدث عن أحلامنا.

- كنا واهمين.. كنا نظن أن العـالم يمكـن أن يتغيـر بالكلمات.

- ماذا جرى لك؟... أين إيمانك بالكلمة؟

- الكلمة؟!... ما جداوها؟ ماذا يمكن أن تفعل؟... مـن يقرؤها؟. حفنة من الثرثارين؟.

إياك أن تنكأ الجرح، إياك أن تحرك المواجع.

- للأدب دوره وتأثيره في حياتنا.

- أي دور؟ وأي تأثير؟... أتخدع نفسك؟... من يقـرأ الأدب؟.. الحفنة الصغيرة تجتر الكلمات في بلادة... قد تهتز

باختلاجات كاذبة سرعان ما تنطفئ، الكلمات التـي ينبغـي أن تكتب قليلة، وإذا كتبت فعليها أن تدفن في الأدراج.

- لكنها يجب أن تكتب.

- لتدفن في الأدراج؟.. لتبعث نغما غريبا وجثثًا محنطة في متحف عصر لا نعيش فيه؟... ثم من الـذي يكتبهـا؟... من تعودوا أن يكتبوا وفي داخلهم عيون تدقق لترى مـا إذا كان ما يكتب صالحا للحصول على جواز المـرور أم أنـه يحتاج إلى مزيد من الأقنعة حتى تختفي ملامحه ويتحول إلى ألغاز؟... أم يكتبها من اختاروا القنوات القديمة الآسنة للعبث فيها؟

مهلاً.. مهلاً يا صديقي، لا تقترب مـن الحافـة التـي تعذبت عندها كثيرا، أنا أعرف أن أفضل وأصدق ما كتبـت لم ينشر بعد، وأنني كثيرا ما أتدخل في تشكيل التجربة الفنية كي أجعلها تومئ وترمز... لكنها رحلة طويلة، رحلة بحـث ومعاناة كي نجد للصدق أفضل الملامح، المشكلة الحقيقية هي كيف نحتفظ بالوهج في أنفسنا، كيف نندفع إلى الأمام دون أن نسقط في الشباك، التوقف يعني الموت.

- كيف يمكن أن تعيش دون أن تكتب؟

- أعيش كاتب أرشيف، ست ساعات مع الملفات المتآكلة والفئران في العطن والرطوبة ثم أحتال على نفسي كي أجيد لعبة الإنسان في أيامنا، ونادرا ما أفلح فألجأ إلى الشراب، هنا موطني الدائم.

- ألا تقرأ؟

- لا... القراءة تعذبني، إذا استبد بي الحنين إلى الكتاب، واستغرقت في القراءة أحسست برغبة في أن أنطلق، أن أعدو، أن أرى أمواجا تصطخب وبروقًا تضوي ورعودا تقصف، وتتملكني رغبة في أن أطلق كلمات مجنحة كالصقور، وكثيرا ما أنفلت إلى الطريق بهذه الرغبة فأفاجأ بالمستنقع الراكد، بالوجوه التي اكتست بالبلادة فيختنق قلبي، وتموت أشواقي.

عين الإحساس الذي كثيرا ما يعذبني، بركة أيامنا تحتاج إلى شيء كالحجارة، الحجارة الكبيرة التي تُلقَى بعنف فتحدث الدوامات، كثيرا ما أتوق إلى كلمات كالصفعات، كلمات تدمي وتشعل، وعندما يعجزني العثور على هذه الكلمات

ينتابني اليأس، ويبدو لي ما أفعله عبثًا فارغًا، يقولون إن للفن مفعولاً بطيئًا، يقولون إنه ينضج الإنسان ببطء كالنار الهادئة، وعلينا أن نصبر حتى تولد الشموس من اللهب الهادئ.

- الكلمات تولد الشموس في أعماق الإنسان.

- هذا إذا كان في الأعماق سماوات يمكـن أن تشـرق فيها الشموس، نحن أعواد جافة نخرهـا السـوس. وقلوبنـا أصابها العفن وازدحمت بالديدان، قد تأتي بعد جيلين أو ثلاثة أيام يسترد فيها الفن قدرته على التأثير في حياتنـا، وحتـى تأتى تلك الأيام لابد أن يحدث شيء كبيـر يحـرك أعمـق أعماقنا، شيء يمزق بلادتنا ويتيح للجميع القدرة على معايشة الفن، الفن الحقيقي.

- لكن الفن نفسه يساهم في صنع ذلك الشيء .

- لا..لا.. لا جدوى من الكلمات، لا جدوى من الفن. ينبغي أن نتوقف عن هدهدة مشاعر الكسالى.

يا لعينيك يا صديقى، بئر عذاب معتم، هل كان يخطر لمن رآك في صباك أنك يمكن أن تنتهي إلى هذا المصير؟... كان في عينيك لهب، وفي كلماتك دفء.

- كنت في صباك متوهجا... كنت متفائلاً بلا حد.

- كنت... كنت في زمن بعيد، أيام كان الدفء يأتي من قلب الصبا لا من العالم، فقدت إيماني بقيمة الشعر، وفقدت القدرة على القيام بأي دور آخر، والمشكلة أنني لم أفقد القدرة على الانفعال والغضب، بودي أن أتعامى أنا الآخر، بودي أن أغوص في المستنقع، أن أكون تاجرا أو لصا أو حتى قوادا لكنني لا أستطيع .... أبدا لا أستطيع.

- ثمة أيام ينبغي فيها للرجل أن يقف وسط الصقيع واضعا كلتا يديه على قلبه ليحمي القلب لأيام الصيف.

- وثمة رجال يسقطون، أنا واحد منهم.

- يمكنك أن تبدأ من جديد.

- أبدأ من جديد؟... هه... بأي قدرة؟.. وفي أي اتجاه؟... لقد أُستُنزِفت، أُستُنزِفت تماما، أتذكر أخي أحمد؟... لا أظنك تعرفه، كان طفلاً عندما غادرت الحي بدأ يمارس اللعبة الخائبة، بدأ يكتب الشعر، يهاجمني كثيرا ويقول إنني كنت قصير العمر.

هل يمكن أن أنتهي أنا إلى هذه النهاية... مسـتحيل... مرضي من نوع آخر، مازال لدي الكثير، سأشفى سـريعاً، لن أتخلى أبدا عن حلم أربعة وثلاثين عاما.

- أتعرف أن أخي أحمد يتحمس لكتاباتك، ويقرؤها لأصدقائه، ويضايقه أنك لم تنشر شيئًا منذ مدة طويلة.

وصلت كلماتي إلى أبناء حينا؟!... كـان أملـي دومـا أن يقرأني أبناء غيط العنب، ويعرفوا أن أخًا لهـم يصـادق الكلمات في شرف.

- كله عبث في عبث... لماذا تحدثنا بهذا الحديث؟... ما كان ينبغي أن أستقبلك بهمومي.

- سأتركك الآن، عليّ أن ألتقي ببعض الأصدقاء.

- مازال في الوقت متسع، لدي أشياء كثيرة أودُّ أن نتحدث فيها.

- سنلتقي مرة أخرى، سأمكث في الإسكندرية عدة أيام

- ستجدني هنا من السادسة إلى ما بعد منتصف الليل.

لماذا يذبل الرجال سريعا؟... لماذا يستنزفون في ربيـع شبابهم، نحن غالبا مشـاريع لـم تـتم، مشـاريع فاشـلة، ماذا ينقصنا؟... أين يكمن العيب فينا؟...

الميدان الصغير الذي ينتهي به شارع النخيل، في موضع الحديقة الصغيرة بنيت دورة مياه، مقر الشرطة، ومقر عربات الإطفاء وشارع حلقة الأسماك، يوما أطلق الرصاص هنا على جواد جامح، صهل الجواد، وانطلق في الميدان فحاصره الرصاص، وانكفأ صاهلاً في جنون ثم أخذ الصهيل يتخافت حتى مات، كنت في العاشرة، ظللت أياما أتمثل عيني الجواد وقد تجمد فيهما الرعب، وفمه المفتوح في نبل فاجع وقد مات فيه الصهيل... رائحة الروث، أما زالت الحظائر في حينا؟... لو توغلت قليلاً لغاصت قدماي في الوحل وروث البهائم في شوارع جبل الجلة، في جبل الجلة يسكن عم كريم، وويصا النجار، ومحمود الأخرس، والكثيرون من عمال البناء وبائعي الخضر والفاكهة، كان الذباب والهاموش يحلق أفواجا، ويتزاحم حول مداخل البيوت، ويغطي قطع العجين المصفوفة فوق أقراص الروث والطين الجاف أيام الخبيز، كثيرا ما كنا نسمع عن وعود

بنقل الحظائر لكنها ظلت دائما في حينا، إلى اليمين شارع البان، قرب نهايته بيت محسن، وإلى اليسار شارع الطابية حيث يسكن كمال، سأذهب أولاً إلى محسن، سيستقبلني بعينيه الذكيتين العميقتين الباسمتين، سينظر في عيني ويضحك ضحكته الرحبة الواثقة.

متلهفاً وقفت على المحطة الصغيرة أنتظر محسن وولدي باسل، الشمس الوليدة ترمق الحقول ببسمة حبيبة فيضحك بحر الخضرة، وينحني الزرع بتحية الصباح، أتمثل محسن هابطًا من القطار بملامحه الوسيمة الجادة الباسمة ضاما ابني بين ذراعيه ومعلنًا نبأً سارا يجعل قلبي يجن ويرقص فرحا، ويزحف الوقت والقطار لايصل، وفجأة يلقي الظلام عباءته على الحقول، ويهب هواء ثلجي يرعشني لكنني أحدق في العتمة ملهوفًا ومترقبا، أقول إن أمرا طارئًا لا بد قد أخر القطار لكنه سيصل حتما، وسأنتظر حتى الصباح.

وتئن الحقول، تعبث بها الريح فيرتجف قلبي، وأتنبه على حركة حولي، وأجد عيونًا تبرق في الظلمة، عيون ووجوه لا أعرفها تحيط بي وتحاصرني، أتفرس في الوجوه فأجدها

جامدة وقاسية كأقنعة صخرية فيرجفني الخوف، وألمح وجه أبي جهما وغاضبا فأسرع إليه:

- أبي.

وتضيق عيناه، وينعقد ما بين حاجبيه، ويتساءل في جفاء:

- ماذا تنتظر؟

- أنتظر صديقًا لي.

ويسأل في صرامة:

- لماذا تركت ابنك مع رجل غريب... ألم أحذرك من الناس، كل الناس؟

- لكن محسن صديقي.

ويشيح عني ساخطًا ومستخفًا

أتفحص الوجوه، أرى ناظر المدرسة الابتدائية الضـئيل العصبى، أتجه إليه فيحرك عصاه في وجهي مهددا، ويشـير بإصبعه إلى حذائي، وأنظر إلى الحذاء فأجده متربـا، وأهـم بالكلام فتقع عيناي على التلميذ النظيف الهادئ، أحـاول أن أتذكر اسمه فأرى بياض عينيه متسعا وقاسيا يـدينني علـى

جريمة لا أعرفها، وأرى الزميل المخدوش الوجه، وعنـدما أقترب منه تبرق عيناه الخبيثتان ويخرج لي لسانه.

أحدق في وجوه خرساء وجهمة، وأرى كمال فأسرع إليه فرحا:

- كمال

ويبدو وجهه كرة من اللحم عارية من أي إحساس:

- ماذا تنتظر؟

- أنتظر قطارا يحمل محسن وابني باسل.

ويقول بصوت معدني جارح:

- لن يصل القطار.

- لكن محسن وعدني وأنت تعرفه لا يخلف وعدا.

- لن يصل القطار.

وتختلط الملامح، تتضبب في وجه واحد أغبش، وترتفع أصواتها كالفحيح:

- لن يصل القطار... لن يصل القطار.

وأصيح في الوجوه:

- سيصل القطار... سيصل القطار حتما.

وأستيقظ وأنا أصيح مرتجفًا:

- سيصل القطار.. سيصل القطار.

بعد هذا الحلم حسمت الأمر وحددت يوم السفر.

إيه يا محسن... ماذا فعلت بك الأيام أيهـا الصـديق؟ أما زلت راسخًا وواثقًا وعنيدا كما كنت؟... أما زلت مخلصا لما تؤمن به كما كنت دوما في صباك؟

دوما كنا معا، منذ الأيام الأولى لدراستنا الثانوية، تعارفنا في إحدى المظاهرات، وعندما عرفنا أننا من حي واحد قويت علاقتنا، كنا نتقاسم زعامة فصلنا وفصول سنتنا الدراسية، في المناسبات أو عندما تأتي مظاهرة مدرسة أخرى لإخراجنا كنت أبادر بالهتاف، وكان محسن يطلب من المدرس أن يسمح للتلاميذ بالخروج في المظاهرة، كم من المظاهرات اشتركنا فيها عامي ١٩٥١، ١٩٥٢، كم هتفنا ضد الملك والإنجليز، وكم من المعارك ساهمنا فيها ضد رجال الشرطة، كنا نتلقى الضربات ونقصف الشرطة

بالحجارة، وننفلت إلى الشوارع الجانبية ثم نعود إلى التظاهر من جديد، ولم نكن نفترق أبدا، في السنة الثانية يثار موضوع يتصل بالعقيدة فأقف، وأعلن رأيا متمردا أؤمن به، ويحدق المدرس إليَ في استنكار ودهشة، وفي هدوء يقف محسن يؤيدني في رأيي ويتطوع بشرحه فيثور التلاميذ ويغادر المدرس الفصل، وبعد قليل يستدعينا الناظر إلى مكتبه، ويسألنا عما إذا كان ما ُأخِبر به صحيحا فتلتقي عيوننا، تتفاهم ونقول في صوت واحد:

- نعم صحيح.

ويقفز الرجل السمين من مكانه، ويرغي ويزبد، ويقرر حرماننا من الدراسة لمدة أسبوع، ويهددنا بالفصل إذا عدنا إلى المجاهرة برأينا مرة أخرى.

كم من الليالى سهرناها نقرأ ونتناقش حتى الفجر، في الأصيل نخرج إلى شاطئ الترعة لنستذكر دروسنا، وينفرد كل منا بكتابه، وما أن تمر دقائق حتى نكون قد استغرقنا في مناقشة إحدى قضايا الفكر، ويحتدم الجدل، ونتنبه فجأة لنجد نفسينا وقد وقفنا وجها لوجه وكل منا يشوح للآخر، وتلتقي

عيوننا فنبتسم، ونضحك في خجل، ونستأنف السير والنقاش من جديد.

تتهاوى تحت معاول فكرنا الكثير من المقدسات، وينكشف زيف الكثير من الأفكار التي ورثناها، يحطم محسن المعتقدات القديمة في جسارة وبلا أسف، وأتأمل وجهه الصارم وعينيه الملتمعتين بذكاء جسور، ألمح الضوء الذي يشع في أعماقها حادا وناديا، أعجب بشجاعة فكره، وأشعر بالأسى والقلق لاضطراري إلى التخلي عن أفكار لا زمتني طويلاً.

أقول له:

- أنت قاضٍ لا يرحم، يستفزني برودك وصرامتك في تناول الأفكار.

وتنطلق ضحكته الرحبة السخية:

- لديك تسامح وطيبة أكثر مما ينبغي، وإن كان دفؤك يعجبني.

أقول له باسما:

- لو أنك تحب، لو أنك تعيش الحب لزاد الجانب الطيب فيك ثراء.

ويضحك بشيء من الخجل والإنكار:

- أنت لا تريد أن تصدق أنه يوجد بين النـاس يهـوذا والوحوش الذين يتلذذون بنهش القلب واللحم البشري.

كان يقول:

- طبيعتك الخيالية تختلف عن طبيعة صلاح، لستما من عجينة واحدة فصلاح يشرع بالعمل وسرعان مـا ينصـرف عنه؛ ليس عنيدا مثلك.

كان صلاح يشترك معنا في المناقشات وسرعان ما يضيق بها، وكان مجدي يقول إننا ننصب من نفسينا سدنة للفكر ونتعب رأسينا بلا طائل، وينظر كمال إلى حديثنا كما ينظر إلى لعبة غريبة لا يفهم سرها أو جدواها، ويطلب منا أن نتحدث في شيء نافع فيسميه محسن بالبقال الطيب.

كثيرا ما كان النقاش ينتهي بنا إلى مقهانا الصغير، وهناك يجذب عددا من معارفنا فتتسع حلقة المناقشة،

ويختلس عم أحمد لحظات من عمله ليجلس متربعا على الأرض يستمع إلى حديثنا، ويشارك فيه.

يتأمل محسن وجه العجوز، ويشـرد بعينيـه، ويقـول بصوته العميق:

- يتحدثون عن الأهرام الثلاثة، هناك هرم أروع مـن كل الأهرامات، هو الإنسان المصـري الـذي عـانى آلاف السنين، واحتفظ بجوهره الطيب.

وأتطلع إلى النخلة الشامخة العتيقة التي تقف على مقربة منا ويخطر لي أنها والعجوز توأمان.

ويلتمع الضوء الحاد الندي في عيني محسن، ويقول:

- السلبية والتواكل غبار السنين، وفي العواصف واللهب يتطهر الإنسان المصرى ويظهر أروع ما فيه.

أحيانًا يشاركنا النقاش عم عبده العامل بشركة الغـزل، القامة القصيرة، والشعر الرمادي، وضحكة العينـين خلـف نظارته السميكة، أستاذ محسن وصديقه، مـرة طلبـت منـه يحكي لي عن أيام سجنه وتعذيبه والاضطهادات التي لقيهـا في سبيل مبادئه فتردد في خجل، وعند ألححت عليه حكـى

في بساطه أذهلتني، كنت أتساءل عن مصـدر القـوة التـي واجه بها الجسـد الضـئيل الـذى يكـاد أن يكـون هشًـا الاضطهادات وعذابات السجون دون أن يفقد ضحكة عينيـه وبساطة كلماته، في عام ١٩٥٦ لم يكن يكف عـن الحركـة والمناقشة في الحي، كانت الأيام الرائعة لحينا، كلنا عشـناها كما لم نعش أياما من قبل.

قرار تأميم قناة السويس يعلن في ميدان المنشية فينفجر بحر البشر في هدير مدوٍ، يتقافز الناس، ويهللون ويصفقون في جنون، وأجن من الفرحة فأرقص وأصفق، أتذكر محسن الذي أقعدته نقاهة الحمى فأسرع إلى بيته، أعانقه وأزف إليه النبأ فينتفض في الفراش ويحدق إلي ذاهلاً، وسرعان ما يقفز من السرير وهو يمسك بي:

- مستحيل... مستحيل... هذا شيء رائع.

ويضمني في قوة، ويسارع بارتداء ملابسه، وننطلق معا، يندفع إلى أول مقهى يصادفنا من مقاهي الصيادين، يعانق أصدقاءه الصيادين ويهنئهم، ويشرع في النقاش حول التأميم والعدوان الذي يتوقعه على بلادنا، ويقترح تكوين لجان وطنية من شباب الحي للتوعية بأهمية الحدث ومتابعة

الأحداث وشرحها لأهالي الحي أولاً بأول، وتُشكل أول لجنة في حينا وينضم إليها أفراد الشلة وعم يوسف الحلواني وفهمي الحلاق، ونعيش أياما رائعة.

ننتقل بين المقاهي وتجمعات أهالي الحي منذ الصباح إلى ساعة متأخرة من الليل، ويموج الحي كله بالحركة والحماس، كل العيون فيها فرحة وإصرار والكلمات واثقة وحادة وعنيدة.

يقول محسن في فرح:

- صدقني تكفي عدة أحداث كبيرة يشترك فيها الجميع، ويحققون فيها بعض أشواقهم حتى تتغير حياتنا تماما.

ونقرر التطوع

ونذهب أنا ومحسن ومجدي وصلاح إلى معسكر الشاطبي، وبعد يومين نفاجأ باختفاء محسن من المعسكر، ويحيرنا التساؤل، فكلنا نؤمن بأن محسن ليس بالشخص الذي يفر لحظة الخطر، وبعد أيام تصلنا الأنباء بأنه تمكن مع أصدقاء لا نعرفهم من التسلل إلى بور سعيد للاشتراك في

مقاومة الاحتلال، ونُكْبِر محسن، يزداد إعجابنا به، وإن كنا نعتب عليه؛ لأنه لم يصطحبنا معه.

ويتم الجلاء، ويعود محسن ليحكي في فرح وفخر عن بطولات المدينة الباسلة... يالها من أيام!... أين تلك الأيام من التاسع المشئوم من يونيه عام ١٩٦٧؟

في الظهيرة، في التوتر والتوجس والشك والأمل يعلـن نبأ انسحابنا، ووقف إطلاق النار فتشل كل ذرة في كيـاني، أحدق ذاهلاً في المذياع، ماذا جرى؟... هل كانت كل الوعود والآمال والأنباء والفرحة التي عشناها أربعة أيام كاذبـة؟... هل كان البناء متداعيا وهشًا إلى هذه الدرجة؟. كنـت أدرك أن البناء متصدع، وأن السوس ينخر فيه، كنـت أدرك قبـل يونيه أن الواجهات البراقة تخفي خرائب، والكلمات الكبيـرة طبل أجوف، لكن الشك في الانتصار لم يراودني وأنا أتـابع أنباء الأيام الأولى مبهورا، وفرحا. لم يخطر لي أن يكـون الانهيار بهذه السرعة والبشاعة، وتنبهت على شللي فرفضت أن أصدق وأنفلت بلا وعي إلى الشوارع.

استشعرت سكونًا مريبا ومعاديا يخرس كل شيء، بدت الطرقات مسرحا ماتت فيه الحياة، ولـم تبـقَ إلا النفايـات

والبقايا التي تشير إلى صخب الوجود الذي كان يضج منـذ قليل، وتواجهني الوجوه شاردة، وحائرة وثكلـى وتصـلني الكلمات محاذرة يخافها ويتربص بها شيء خفي، وتتجسد لي أحداث عام ١٩٥٦، أحداث شهري أكتوبر ونوفمبر الرائعين فأهم بأن أصيح في المارة، أن أهزهم بقوة كـي يسـتفيقوا، كي يتذكروا الأيام التي عشناها جميعا، وكشـفنا فيهـا عـن أروع وأثمن ما فينا، وأجدنى عاجزا ويتيما في عالم غريب.

وفي المساء تنقض الصاعقة الأخرى فأتسمر ذاهلاً ورافضا وأبكم، أرفض أن أصدق الكلمات الناعية المثقلة المهزومة، أيكون الهروب في أحلك اللحظات؟... أيكون السقوط سريعا ومخزيا؟... وتلتقي عيناي بعيني زوجتي، يواجهني في عينيها رعب فاجع، يصفعني صفعة حادة فأفيق على عجزي، ولسبب لا أدريه أندفع إلى الطريق، و تندفع في إثري، وفي الظلمة يفاجئنا الطوفان، بحر البشر العاصف فنلقي بنفسينا فيه، نصيح ونصرخ رافضين مع آلاف الوجوه، وتتوحد ملايين القلوب المفجوعة و الرافضة في قلب هائل ورهيب، ويخيل إلي أنني أعرف كل الوجوه، وأنني عرفتها وأحببتها دوما.

أيمكن لتلك اللحظات أن تمحى من ذاكرتي؟.. أيمكن أن أتخفف يوما من كل المرارة التي رسبتها فـي أعمـاقي؟.. بعدها ظللت أياما كثيرة ممرورا وتائهـا، أتحاشـى عينـي زوجتي، لماذا كانت كل انتصاراتنا وأفراحنا شـهابا خاطفًـا سريعا ما ينطفئ؟... لماذا كانت الأيام المجيدة في حياتنا قليلة وعابرة؟... كيف عاش حينا تلك الأحداث؟... كيف عاشـها الأصدقاء؟... لا شك أنهم عاشوا نفس الفجيعة والمـرارة، إيه يا محسن... هل أستشعر اليقين والتفـاؤل فـي كلماتـك الواثقة؟

ونحن في الطريق يتلفت حوله، يرق وجهه، وتحنو عيناه، ويسر بالشجن العذب صوته:

- ياه... كم أحب هذه الوجوه، كل الوجوه الطيبة والمتعبة والصابرة، لو أكون وفيا لها حتى آخر لحظة من عمري.

وأضم كفه بكفي، وتفيض الدموع من عيني.

سنتناقش في كل شيء يا محسن، ستسألني عن كتاباتي فقد كنت متحمسا لما أكتبه، سأحكي لك أحداث رحلتي

الطويلة، لن أخفي عنك شيئًا، ها هى مقاهي الصيادين، كثيرا ما كنت أعثر عليه مشتبكًا في النقاش بإحداها، كثيرا ما يكون معه عم عبده، زرته مرة مع محسن، في غرفته الصفيح الصغيرة، وعلى ضوء لمبة الغاز كان يقطع السيجارة الواحدة ويدخنها على مرات، ويقرأ بصوته العميق المضيء، فيبدو بضآلته وضحكة عينيه وحركاته البسيطة الودود المتحررة قريبا من القلب، كان في كلام محسن يقين الفكر الشاب الشجاع، وفي كلام عم عبده يقين الحياة نفسها، الحياة التي تمضي في حتمية إلى الأمام برغم كل شيء، بالرغم من أننا كنا نختلف معا في بعض الأفكار كنت أحسُ بأنه قريب مني وأننا أبناء شوق واحد.

صوت طبول الزار، الدقات الصاخبة المتشنجة، لا بد أنني قريب من بيت محسن، مساء الخميس من كل أسبوع تعقد حلقة الزار في بيت مجاور لبيته كلاهما من طابق واحد، كلاهما قديم ومتهالك، اختلط علي الأمر.. ها هو بيتك يا صديقي، ذو المدخل الصغير... ها هو الباب، ماذا تخبئ لي أيها الباب؟ ... بماذا سترد على طرقاتي؟...

- مساء الخير يا أمي.

- مساء الخير.

الوجه الأسمر المكدود، القامة الصغيرة النحيلة، تضيق عينيها، تحدق في وجهي، وجهها يضيء بالدهشة.

- من؟.. رأفت؟... أهلاً... أهلاً يا بني.

الأم الحبيبة تذكرني، ترتدي السواد، لم تكن ترتدي الملابس السوداء في تلك الأيام.

- تفضل... تفضل يا بني.

على وجهها سحابة أسى، في حينا ترتدي النسوة الملابس السوداء في سن مبكرة، تنتهز الواحدة منهن أول مناسبة حزن لتدفن نفسها في السواد، أحيانًا بدون مناسبة، أهل حينا في أعماقهم حزن غامض، في لحظات الفرح القليلة يتوجسون من خطر مبهم، الحجرة كعادتها نظيفة ومرتبة برغم بساطة الأثاث وقدمه، المائدة الصغيرة ما تزال في الركن، عليها عدد كبير من كتب محسن، مرتبة في نظام كما كان يفعل دائما، كنا نجلس إلى هذه المائدة نقرأ ونتناقش حتى ساعة متأخرة من الليل، ووالد محسن ووالدته في الغرفة الأخرى، أحيانًا كان يحتدم بيننا الجدل فيخرج إلينا

والد محسن بوجهه المعروق وعينيه الطيبتين وجلبابه الرث، يقول إننا نهندس العالم ونحن لا نعرف شيئًا عما يدور في المصنع الذي يعمل فيه، ويبتسم محسن، يتأمل أباه بعينين فيهما حب، وإشفاق، وأسى، وغضب، ويقول لأبيه إن العالم، كل العالم سيتغير عندما ينتفض المظلومون ويثورون، ويقول الرجل إنه حتى يتغير كل العالم فستبقى أحوالنا كما هي، وفي بساطة يحدثه محسن عن بعض الأحداث من تاريخنا وعن كفاح الشعوب الأخرى، ويستمع الرجل إلى كلام ابنه ببسمة آملة، مشفقة، فخور، ويهز رأسه، ويقول إننا مازلنا صغارا، إيه أيها الصديق... انتهيت إلى طريقك يا محسن، سيسعدك أن تكتشف اتفاقنا في الكثير، ستضيق بلون الحياة التي أعيشها هذه الأيام، أزمة عابرة يا صديقي، مالك صامتة يا أمي؟... ما بال عينيك شاردتين؟... أين محسن؟... ألا يوجد بالبيت؟... أيجلس في أحد مقاهي الصيادين؟... عيناك تتنديان بالدمع، هل هاجر هو الآخر؟... هلى تخلى عن أروع الأهرامات؟.. لا ... محسن لا يفعل هذا، كثيرون غيروا وجوه الصبا والشباب، واتخذوا لأنفسهم سحنًا جديدة، كثيرون يحلمون في صباهم بتغيير العالم لكنهم

ينسون كل شيء وتموت أشواقهم عندما يكبرون، لا... محسن كان دائما أمينًا لأفكاره وأشواقه، كان يقول إن شعبنا يحتاج إلى بعض الشرفاء الجسورين ليكونوا بداية الانطلاق، وإنه سيكون واحدا منهم، ثمة صنو لك يا محسن، لقيته أيام الاعتقال، كان يشبهك في رزانتك ورسوخك وإصرارك، كانت بسمته المضيئة واثقة وواعية ومحبة، كنت أُحدث فوزي كثيراً عنك، من فرط ما حدثته أصبح يتوق إلى التعرف عليك، عندما رأيته بعد أعوام من الإفراج عنا كنت أخشى أن يكون قد تغير مثل الكثيرين الذين فجعت فيهم، وأسعدني أن أجده كما كان بل وزاد إصرارا وإدراكًا، في لحظات اشتداد المرض كثيرا ما ألجأ إليه، يحاول أن يساعدني في محنتي، سأعرفك به يا محسن، سيعجبك كثيرا، صدقني أن ما يبقي عليّ حتى الآن أنني أعرف بعض الطيبين الذين يستمسكون بأفكارهم وأشواقهم في عناد، هم مرفئي الذي أسرع إليه عندما تصفعني الأمواج وتتلقفني الدوامات، أمازلت صامتة يا أمي؟... عيناك غارقتان في الدموع، ماذا جرى؟... نفسي لا تطاوعني على السؤال عنك يا صديقي، تعوّدت عندما تصلني رسالة أتوقع منها نبأً سارا

أو نبأً محزنًا أن أدعها في جيبي بعض الوقت متلذذًا بتوقع النبأ المفرح أو خشية النبأ المؤلم، تعودت هذا في السنين الأخيرة، الدموع تنساب من عينيك يا أمي، تكلمي، قولي إنه هاجر، الوجه الطيب لن يردني خائبا.

- أمي ... أين محسن؟

- محسن؟!... ألا تعرف يا بني؟!

- أعرف؟!... أعرف ماذا؟!

فعلها هو الآخر؟... أتجهشين بالبكاء!... أنا أعرف أنه وحيدك، وأنك تحبينه كثيرا.

- محسن... تعيش أنت .

- ماذا؟!!

- مات يا بني منذ خمسة أعوام.

- مات؟!

محسن مات؟!... دفق الحياة، الجسارة، الأشواق، الحب العارم لكل ما في العالم ولأروع أهرامنا، كل هذه ماتت؟!...

لم يعد في عالمنا؟... لن أراه أبدا... مستحيل!!.. قولي شيئًا آخر يا أمى.

- كان يذكرك دوما... كان يحبك يا رأفت.

وأنا أيضا أحبه، أحببته دائما، كنت أذكره كثيرا في غربتي، في لحظات اليأس كان وجه في مقدمة الوجوه التي تشرق عليّ وتشير إلى الأفق الذي ينتظر الشروق، كنت أستعيد كلماته وأتعلم منها، لن أراه مرة أخرى؟... لن أحكي له شيئًا؟... أتبكين يا أمي؟... حركت أشجانك؟... ماذا أقول لك... ماذا أقول لنفسي؟... ماذا أنتظر؟... هيا يا قدمي... وداعا يا أمي، أنا آسف... جئت متأخرا خمسة أعوام كاملة.

هيا أيها الممر المعتم، ألقِ بي بعيدا عن هذا البيت، وداعا، مستحيل، أمك أخطأت، قد يكون الميت شخصا آخر، لأعد وأسأل الأم، ستقول إنك مازلت حيا وإنك... لا ... لا جدوى، كلماتها كانت واضحة وهي تنعيك لي.

إيه أيتها الدموع الساخنة... أتبكين محسن؟... ابكـي... ابكي... يا عيني قد نلتقي بالمهاجر لكننا لن نلتقي بمحسـن

ولن نراه أبدا، دقي.. دقي يا طبول الزار، دقي فلن يمشـي محسن في هذا الشارع، لن يغضـب للاسـتخفاف بعقـول البسطاء في حينا، لن يمشي في أي شارع من شوارع حينا. لأغادر غيظ العنب على الفور، لن أمكث فيه لحظة أخـرى، لن أذهب إلى كمال. ماذا أنتظر بعد الآن؟

ماذا أقول لها عندما أعود؟... ماذا أحكي لها عن أصدقاء طفولتي؟.. كانت تعرف صلاح، وحدثتها كثيرا عن بقية الصحاب، ما أكثر ما حدثتها عن محسن، عندما تركتها عند المحطة لم تقل لي لا تغب كما تعودت أن تفعل، كنت متعجلاً، كنت متلهفًا للانطلاق إلى ملاعب الصبا والصحاب، ماذا أقول لها عندما أعود؟.. هل أدفن وجهي في صدرها وألوذ بالصمت الأخرس؟ في الشهور الأخيرة لم أكن ألجأ إلى صدرها كما اعتدت أن أفعل كلما حاصرتني الهموم والأحزان، كنت أحاول أن أحمل الأحزان وحدي، كانت تفتح أحضان بسمتها وتقول:

- الأيام الحلوة قادمة.

عندما أحدثها عن الليل الحالك الذي يقبض على المتعبين، وعن الجزر المعزولة التي يعيش فيها كل إنسان وحيدا لا يرى غير سحابة ذاته تقول إن الأيام الحلوة قادمة.

عندما أصف لها القوى التي تتربص بالإنسان في الأزقة المعتمة لتنهش قلبه، و تجعل منه يهوذا أخيه لا إنسان تقول إن الأيام الحلوة قادمة.

المرارة ترسب في حبة القلب، تجعله مثقلاً ووحيدا في العراء والظلمة فأقول لها إن الأيام الحلوة ضلت الطريق إلى دربنا فتذكرني بأصدقائنا الطيبين وكلماتي وأشعاري القديمة، وتستنكر مني أن أيأس أنا الذي علمتها أن تثق بالكلمات وقلب الإنسان.

من أين تأتي بيقين كلماتها وتفاؤلها الفرح وأنا الذي علمتها الكثير وقدتها إلى الطريق تنتابني لحظات الشك واليأس والمرارة؟... كثيراً ما يدهشني اكتشافها لحقائق وأمور أغفل أنا عنها، كانت نفسها أرضا طيبة خصبة تنتظر البذور، وكانت نفسي أرضا بورا جدبة أصلحتها بالعناء وسهر الليالي، ومازالت تحتفظ بآثار أيام الجدب.

ماذا أقول لها؟... ماذا أحكي لأمل؟

- بابا .. احكِ لي حكاية.

وتلتصق بي، وتشرع عينيها الباسمتين.

وأحكي لها، ودائما أسمي أبطال الحكايات بأسماء أصدقاء صباي، قلت لها عند المحطة إنني ذاهب لملاقاة أبطال حكاياتها فتعلقت بي، وطلبت أن تأتي معي لتراهم، قلت لها إن المسافة إليهم بعيدة وإنني سأحضرهم جميعا معي، أحضرت صورتها لأريها للصحاب، لن يرى أحدهم صورتك يا أمل.

مازال هناك واحد من الأبطال لم أعرف مصيره، مازال هناك البقال الطيب ولكنني لن ألقاه، أخشى المزيد من الخيبة يا ابنتي.. كان أبوك لا يخشى الفشل، كـان الفشـل وخيبـة الأمل يولدان في نفسه العناد، جدك وجدتك يقولان إنك عنيدة كأبيك، شخت يا ابنتي، وشاخ الإصرار القديم.

أأعود دون أن ألتقي بواحد منهم؟.. أأعود بعـد أربعـة عشر عاما لأمضي وحيدا في غيط العنب؟.. ماذا سيضيرني بعد الآن؟... لألعب لعبة العناد القديم وليكن ما يكون، لأذهب

إلى كمال، لينته اللحن وتطوى كل الصفحات أو تُفتَح صفحة أو اثنتان.

الأضواء خافتة، شحيحة، المارة يسرعون، هل ضاقت الشوارع عما كانت عليه أيام صبانا؟... عندما كنت أتذكر شوارع حينا كانت تتجسد لي متسعة ومضيئة، وأنا صبي كنت كثيرا ما أنفلت إلى شوارع الحي في المساء، كانت المصابيح الصغيرة المرجوفة الضوء، والوجوه المتعبة المهمومة، والخطى المقيدة اللاهثة تبعث في نفسي الأسى، وتشعرني بأن العالم يضم من الأحزان أكثر مما يحتمل، كان يستبد بي الإصرار على أن أهب عمري للمساهمة في جعل الناس أنبل وأسعد والعالم أعدل وأجمل، كنت أقول إن كتاباتي ستلهم الكثيرين وتدفعهم إلى العمل من أجل حياة جديدة وعالم جديد، ماذا فعلت كتاباتي؟.. ماذا يمكن أن تفعل في الأيام الآتية من عمري؟.

الميدان الصغير، لا شك أن الشاعر القديم ما يزال يعاقر خمره، هل يمكن أن أصل إلى نفس النهاية؟... أخوه الشاعر الصغير يتحمس لكتاباتي، ماذا سيفعل شـاعرنا الجديـد؟... ماذا يقول عن المرارة التي تنضح في أعمالي الأخيرة؟.

شارع الطابية، الشارع يزدحم بالمقاهي، المقاهي المتلاصقة تغص بالجالسين، وجوه بائعي الخضر والفاكهة الداكنة النازحة من الصعيد إلى صهد طرقات المدينة، ووجوه عمال شركة الغزل، أفندية الحي المتأنقون كانوا يفضلون المقهى ذا الواجهة الزجاجية أمام الكوبري، الشارع يبدو بلا نهاية، ماذا تخبيء لي يا شارع الطابية؟.. هل ستردني خائبا أنت الآخر؟... الصديق الأخير الذي أطرق بابه، أيمكن أن أجد فرحا في حينا بعد الآن؟... قد ألتقي بصلاح، قد يدلني كمال على بيته، بودي أن أعرف مصير الحالم الآخر، وأنت يا كمال، ماذا فعلت بك الأيام؟... هل ألتقي بك، وأستدفئ بعناقك؟... هل أذكر معك الصديق الذي مات والصديق الذي هاجر، وأدعوك لتدلني على بيت صلاح؟.. أيها البقال الطيب، كنا نقترض منك ولا نرد لك أبدا، لا شك أنك مازلت في حينا، لا يمكن أن يخلو الحي منكم جميعا، قد يكون في محل أخيه، المحل بنفس البيت الذي يسكن فيه، يبدو أنني اقتربت، الشارع يوشك أن ينتهي، ها هو المحل، لا داعي لهذه اللهفة، لا داعي للشوق المتوتر حتى لا تكون الخيبة كبيرة، كمال لا يوجد بالمحل،

ها هو أخوه، الوجه الممتلئ والقامة البدينة، مازال جهما كما كان، شاربه الأسود الكث يزيد من جهامته، قد يكون كمال في البيت.

- مساء الخير.

- مساء النور.

- كمال موجود؟

- لا.

حتى أنت يا كمال؟

- سافر إلى المحلة لإحضار بضاعة.. تفضل.

الرجل يحدق في وجهي، يحاول أن يتذكرني

- متى يعود؟

- المفروض أن يعود الليلة... أنت رأفت؟

- نعم .. أنا رأفت .

- تفضل.. تفضل.. يمكنك أن تنتظره.

- شكرا... سأعود إليه في وقت آخر.

عدت وانتهى الأمر... لن أعود مرة أخرى

- صديقكم صلاح كان هنا منذ لحظات.

- من؟... صلاح؟؟... أتعرف بيته؟

- البيت الثالث بعد بيتنا، في الطابق الرابع.

لن أعود خائبا يا غيط العنب، لن أعود خائبا يا أمل

- عندما يحضر كمال أرجو أن تخبره بأنني عند صلاح

سألتقي بالمجنون الآخر، بأقدم الأصدقاء، ستفتح صفحة صداقتنا من جديد، إلي بأنغامك يا صنو الأشواق والأحـلام، أثقلني الغبار، أريد أن أغتسل من عناء الرحلة الطويلة، مـن أسى التجوال الخائب في حينا، تقدمي يـا قـدمي، تقـدمي، ها هو البيت، تمهل يا وجيب قلبي، ما عدت في خفة ورشاقة الصبا، سيفتح الباب بوجهه الرقيق الحالم، سيضمني في قوة، سيلتقي الحالمان أيها المهاجر، سـيعودان إلـى أحلامهمـا وجنونهما، سيسلخان جلدك يا من هجـرت غـيط العنـب، ها هي اللافتة، تحمل الاسم الحبيب، دقي يا يدي، دقي بـاب الحالم الآخر.

- صلاح !!

ها قد التقينا، ها قد التقينا يا صديقي الحبيب، مـا كـان لحينا الطيب أن يردني خائبا، ما كان لأحلـى أيـام عمرنـا أن تتحول إلى ذكريات تبعث الأسى، تتأملني في هدوء؟.. لا تصدق أنني عدت إلى أيام الصبا؟.

- أهلاً.. أهلاً..

لأرتمِ في أحضانك أيها الصديق، لم نعتنق منذ سـنين، طال شوقي لأحضان الدفء، أنا آسف لغيبتي الطويلة، أبدا لن أفعلها مرة أخرى، ستجدني كما كنت حالما ونزقًا وسأبقى هكذا ما حييت، ضمني في قوة، أريد دفء عناقك لا فخامته، مستحيل أن تنساني.

- ألا تذكرني يا صلاح؟

- طبعا أذكرك... تفضل يا رأفت... تفضل.

البيت الوحيد الذي أدخله في غيط العنب وأجد فيه صديقًا، لم تعد نحيفًا يا صلاح، امتلأت قامتك، ويبدو وكأنها استطالت، وجهك زاد اكتنازا، قصتك الفاحمة كما هي، مسكن لم يكن يوجد مثله في حينا، فاخر، ولامع، كل شيء يشي بالثراء، كيف هبط الثراء على الحالم الآخر؟... يبدو أن

لعبة الأدب أخيب الألعاب، جميل أن يقترن الفن بالاكتفاء، ألوان هذه اللوحة فاقعة، يعوزها التآلف، الخطوط جامدة، جافة، تبدو شيئًا مصنوعا، لماذا تعلق هذه اللوحة أيها الفنان؟. إيه أيها الصديق، في الشوارع، وعند النواصي، في حديقة الشلالات، وعند البحر نحلم ونحلم، وكأنه بقدر ما نحلم يكون لنا.

- ذهبت إلى بيتكم فور وصولي إلى الحي.

- انتقلت إلى هنا منذ ستة أعوام... كيف حالك؟

- كما ترى.

كما ترى... أحمل آثار رحلة طويلة ومضنية

- ما الذي ألقى بك إلى غيط العنب بعد كل هذه السنين؟

- اشتقت إليكم، وإلى غيط العنب.

- يا سيدي لعن الله غيط العنب ومن فيه.

ماذا؟!... أتغير غيط العنب كثيرا عما كان أيام صبانا؟... كلنا نحبه، تمنيت أن أعيش فيه طوال عمرى، عندما قرر أبي بعد أن أوشك على الإفلاس أن يرحل إلى

أعمامه المقاولين بالقاهرة بذلت كل المحاولات لأثنيه عن عزمه. منيت نفسي بالعودة إلى الإسكندرية والعمل فيها بعد التخرج، لعلك ناقم على الحي بعد هجرة مجدي وموت محسن، لك العذر يا صديقي.

- أهله كلهم مواشي.

مواشي؟... ماذا جرى لك؟... شيء غريب في نطقك للكلمات، ليس مجرد الغضب المعاتب.

- ما أخبار موسيقاك؟

- موسيقاي؟!... أوه... أمازلت تذكر؟!

- كنت تحلم بمقطوعة تغير الإنسان في لحظات

- ها.. ها.. ها.

ما هذه الضحكة!... الشفتان المرهفتان أصبحتا مكتنزتين، هل استبدلت الموسيقى بفن آخر!... أنا هجرني الشعر، أحياناً أقول إن القصاص الذي كان يكمن في احتوى الشعر.

- أوه... نسيت كل هذه الأشياء من سنين.

- كنت تتمنى أن تكون موسيقارا كبيرا.

- قل كنت ساذجا كبيرا.

أمين عبد الفتاح آخر!...

- كان مجدي يسمينا المجنونين .

- أبدا... أيام مراهقة... لم تكن الحياة قد كشفت لنا عن وجهها الحقيقي، أمازلت تكتب الأدب؟

- أجل.. أكتب القصص .

أتهز رأسك؟... أيدهشك أن أتشبث بحلمي القديم؟... في حديقة الشلالات نستلقي على العشب، تطير عيوننا في السماء الرحبة، صوتك يرق ويصفو وهو يتحدث عن عشقك للأنغام، وعند البحر نتأمل العشاق ونحلم بالحب، أحدثك عن نادية، وتحدثني عن جميلة.

- أتزوجت جميلة؟

- جميلة؟!... أما زلت تذكرها؟... ماتت منذ سنين بمرض القلب بعد زواجها من آخر بأسبوع.

وماتت جميلة أيضا؟...

- محسن مات.

- ليرحمه الله.

- لم أصدق عندما أخبرتني أمه.

- لا يعرف أحد كيف مات، قال البعض إنه مات موتًا طبيعياً، وقال آخرون انتحر، وقيل إنه قتل.

كلماتك باردة لا مبالية، كأنك لم تكن صديقه

- محسن لا يمكن أن ينتحر.

- مات في مكان لا يعرفه أحد، قُبِض عليه وبعد عام أُبلِغ أهله بوفاته. فعلها الجلادون؟... دفنوه في الجب الذي يدفنون فيه القلوب الطيبة؟

- نصحته كثيرا، كان في السنين الأخيرة حادا ومتهورا. أصبح مستخفًا بحياته فاضطررت أن أقطع علاقتي به، وكذلك فعل كمال، كان يمكن أن نلاقي نفس مصيره، أنت كنت تتفق معه في الكثير من آرائه.

لماذا تختنق البسمة بين شفتيك الممتلئتين؟... أصبحت لا أختلف معه، ولكن بعد أن اختفى من عالمنا.

- أما زلت متحمسا لمبادئه؟

ماذا أقول لك يا أخي؟... عيناك تتفرسان في عيني بطريقة غريبة، طريقة محقق معادٍ.

- أصبحت الآن أكثر إيمانًا بمبادئه.

أتشيح بعينيك؟... أحيانًا كنت تشاركنا النقاش، كنت تتعاطف مع آراء محسن.

- يوجد في الحي الآن بعض الأولاد من نوع محسن يسببون لنا كثيرا من المشاكل.

طبعا يا صديقي، عم عبده أستاذ محسن كان يقول إنه دائما يولد الأنباء الطيبون، ترى هل مات هو الآخر أم مازال في مقاهي الصيادين يبذر كلماته؟

- هدامون، يحركهم الحقد الأعمى..

وهل كان محسن هداما وحاقدا؟! .. تغير رائع للمواقع

- تعالي يا زينب... زوجتي زينب... رأفت صديق قديم .

- أهلاً.. أهلاً.

لا شك أنك لا تعرفينني، صلاح لم يحدثك عني، أنا حدثتها عن كل الأصدقاء كانت تعرف صلاح، لا بد أنه نسيها، يمكنها أن تتعرف على أي منهم للوهلة الأولى لكثرة ما حدثتها عنهم، ها أنت ممتلئة كصديقي، عيناك تنامان على وسادتين من اللحم المنتفخ، شعرك أكرت كألياف خشنة قديمة.

- والد زينب تاجر مواشي كبير.

- تشرفنا.

نعم الزوجة، الحلي يزدحم في صدرها ويديها، يبرق ويضوي ككل شيء صالونك الفاخر، صالونك يفتقر إلى الكثير من لمسات الذوق.

- بماذا تعمل؟

- أعمل مديرا للحسابات في شركة، وأتاجر في المواشي.

مصير طيب لأحد الحالمين، قال مجدي ستتحول أنت وصلاح إلى صعلوكين، وسيكون كمال ثريا، ومحسن سيكون

مصيره السجن، وقال عن نفسه إنه سيبقى نزقًا ومشاكسا، وسيكون طيارا.

- وأنت أمتفرغ للأدب؟

- أعمل محققًا في شركة.

- أظنك تزوجت؟

- أجل .

لن أريك صورة أمل، بطل قصتها كان يضم الكمان ويهيم مع الأنغام، سأحكي لها عنك، لا .. لن أحكي لها شيئًا، عيناك خلتا من الندى القديم، لو كنت هاجرت لبقيت في ذاكرتي صورة الصبا.

- أريت مجدي قبل أن يهاجر؟

- كنا نلتقي أحيانًا، قبل أن يهاجر اعتزل الجميع، وأصبح يائسا من كل شيء، أصبح جافًا وعصبيا.

- مجدى كان لا يكف عن الضحك.

- كان قد اتهم بالاختلاس.

- اختلاس؟!... مستحيل!!... مجدي لا يمكن أن يختلس.

- برئ بعد اتهامه بعامين، ولكن بعد أن تحطم تماما

- ألم تحاول إقناعه بالبقاء؟

- ولم؟... أنا نفسي أفكر في الهجرة.

أنت أيضا تفكر في الهجرة

- سأرحل عن غيط العنب بعد أيام .

- إلى أين؟

- إلى فيلا بنيتها في الرمل.

لترحل يا أخي... لا بد أن يخلو الحي منا جميعا

- غيط العنب لم يعد يطاق، أهله جشعون.. حسدة.

نفس كلمات أبي، يعتقد أن الجميع يطمعون في ماله، خشيت أن يتهمني أنا أيضا بالجشع فلم أطلب منه شيئًا منذ أن هجرت بيت الأسرة.

- ما عدت أطيق قذارة الحي وبلادة سكانه.

ماذا كان يمكن لمجدي أن يقول لو سمعك تنطق هذا الكلام؟... هل أنت صلاح حقًا؟

- ماذا جرى لك؟... لقد تغيرت كثيرا.

- أنا!... لا لم أتغير، فقط فتحت عيني المغمضتين فرأيت الكثير الذي لم أره من قبل، كان ينبغي أن أهجر الأوهام وأفيق، وقد أفقت في الوقت المناسب.

إلى هذا الحد يمكن أن يتغير المرء؟... أيمكن أن يتنكر لأشواق وآمال الصبا في أعوام قلائل؟... ما الذي جرى لنا!؟

- أكنت تتوقع أن تراني بعد كل هذه السنين حالما مهلهل الثياب وفي حضني الكمان؟.. هل كنت تظن أنني أعيش نغما شاذًا وقد جاوزت الثلاثين؟.. لقد فعلت كل ما أستطيع، حتى فرق العوالم انضممت إليها، أطربت السكارى وخرجت من أفراحهم جائعا، أتنظر إليَ مستغربا... هل جربت أن ترى من تحب يموت أمام عينيك وأنت عاجز لا تملك ثمن الدواء ولا تجد من يتعطف عليك به؟

إيه يا صديقي،جربت، جربت الكثير، الوجه الذي كـان حالما امتلأ، تكوَر وتوَرد، انتفخت العينـان، تسـبح فيهمـا

الديدان الحمراء، ثمة شراهة حسية ودسـمة فـي العينـين الكبيرتين، والأصابع مكتنزة يغطيها شعر كثيف، لا شك أنها تجيد التعامل مع المواشي.

- ماذا ربح محسن من وراء أحلامه بالعدالة؟.. لحساب من نعاني ونتعذب؟.. قل لي، لحساب من نجوع ونذل؟.. من أجل أولئك المواشي؟.. حلمت بأن أعزف مقطوعة لم يعزفها موسيقار كما تقول، لمن كان ينبغي أن أعزفها؟.. للأغبياء الذين يتقاتلون وعيونهم مشدودة إلى الوحل؟.. كم قصة نشرتها؟.. خمس؟.. عشر؟؟ عشرين قصة؟.. ماذا جنيت من ذلك؟.. كم ربحت؟.. ماذا فعلت قصصك؟.. هل غيرت وجه العالم؟

كفى.. كفى... يبدو أنني ضللت الطريق إلى بيت الحالم الآخر.

- نصحت محسن كثيرا بأن يفيق وينتبه لنفسه ومستقبله، كان يواجه كلماتي بالسخرية، كانت سعادته في أن يقول كلمات فارغة عن أحلام مستحيلة، كان لا يملك ثمن وجبة غذاء ويتنقل طول النهار بين مقاهي الصيادين وعمال البناء وشركة الغزل، كان أحمق، جر على نفسه الهلاك،

ملعون كل شيء وكل إنسان يحرمني المتعة، ألا تعرف كيف يعيش الناس؟... ألا تعرف أن الكثيرين يثرون في شهور بل وأيام؟ ألا تعرف أن الرجل الشريف أصبح أبله هذا الزمن؟.. ينبغي أن تنظر حولك، دع الأحلام الفارغة،، أفق وافعل ما يفعله الجميع.

ولماذا أفيق يا أخي، لا بد أن يبقى أحدنا واهما وغافلاً، لا بد للعالم من بعض البلهاء، ماذا أنتظر؟... انتهى اللحـن الأخير، أنهاه الموسيقار القـديم، علـيَّ أن أنصـرف، هيـا يا قدمى، لم يعد لي أحد هنا، أتعبتكما كثيرا.

- انتظر... سأوصلك بعربتي.

- شكرا... أفضل السير على قدمي.

- أرجو أن تزورنا مرة أخرى قبل السفر.

زرتكم وانتهى الأمر، حتى كمال لا أرغب في رؤيته.

هيا يا شارع الطابية ألقِ بي بعيدا عنك، لعبت لعبة الأيام الخالية، لعبة العناد القديم فحصدت المزيد من الخيبة، وأنا أتعجل القطار لمحت في بسمتها وعينيها شيئًا من الإشفاق، ثمة هاجس خفي كان يحذرني، كان يهمس لي بأنني

لن أجد الأشياء والأصدقاء كما تركتهم في ذلك الزمن البعيد، ظننت أو تمنيت أن أجد كل شيء كما كان منذ خمسة عشر عاماً، تمنيت أن أعانق الربيع، يا للربيع!!

- كان ينبغي أن أهجر الأوهام وأفيق، وقد أفقت في الوقت المناسب. أنا لن أفيق أيها الحالم القديم، سأشفى من مرضي العارض، وسأبقى في غيبوبتي وأوهامي حتى نهاية العمر.

- المجنون أهه... أهه... المجنون أهه.. أهه

من؟... خليل؟

- يا ولد.

الأولاد يزفونك بالصياح يا خليل؟... أما زلت تائها في الطرقات أيها الصديق الطيب؟... ألك أصدقاء تبحث عنهم؟

- لا بد أن نعرف كل شيء... لا بد أن نعرف كل شيء.

أية أشياء لا بد أن نعرفها يا صديقي؟... أشياء كثيـرة لا نعرفها وقد لا نعرفها أبدا.؟.

أنا لا أعرف شيئًا.. أنا لا أعرف شيئًا.

- ألا تعرفني يا خليل؟

لايمكن أن يكون جنونه مطبقًا.. لابد أن له لحظات إفاقة

- أنا رأفت.. أنا صديقك يا خليل.

لماذا تحدق في وجهي بدهشة وفزع؟... أتجفل مني؟... أتخافني أيها الصديق؟...

لتمضِ في طريقك... لتغب في شارع" المعارف" الطويل المظلم، ولأمضِ أنا... لأمضِ في طرقات لا تعرفني.

- المجنون أهه.. أهه.. المجنون أهه.. أهه

في الشهور الأخيرة كثيرا ما كنت أخشى على نفسي من هذا المصير، عندما أقضي نهارا خائبا ومتعبا، وأسلم نفسي لليل والأرق تطفو في الصمت ذكرى الأشواق التي ماتت والآمال التي مازالت بعيدة، ومع الأسئلة المعذبة اللحوح أغوص في الليل، أنصت لوقع الخطى الوحيدة المتباعدة، وصراخ القطارات التي تندفع إلى البعيد وتخلف الفراق والفقد والوحشة، ونباح الكلاب التي تنبح وتنبح دون أن

يستجيب لها أحد، ومواء القطط وهي تتمسح بالجدران وتموء باكية كالأطفال لأنها لا تجد غير العري والبرودة، ويلوح لي إنسان عارٍ ومثقل، منكس الرأس، ومنكفئ العينين، يتخبط في صحراء ضبابية، باردة وبلا نهاية، وأتساءل عما إذا كان سيوجد يوما خلاص حقيقى، عما إذا كان من الممكن أن تملأ عالمنا ضحكة فرح كبيرة وحرة، وتحاصرني التساؤلات، تنوشني، وتشد أعصابي، ويوشك عقلي أن يتوقف، أن ينفجر شيء فيه، وأجدني وحيدا وممرورا على حافة الهوة المظلمة، أحيانًا يسيطر عليّ التفكير في الموت، يفجعني أنه في لحظة خاطفة ينتهي الإنسان فينتهي عالم بأكمله، وكأنه لم يوجد أبدا، ويبدو لي عبث كل شيء، الوجود والعدم، السعادة والشقاء، الخلاص والضياع، وتنتابني رغبة في التخلص من عذاباتي وتساؤلاتي، التخلص بالموت، لم أكن أعيش مثل هذه اللحظات من قبل، حتى في الزنزانة الضيقة وبلا أمل في رؤية العالم والأحباء مرة أخرى كنت متوهجا وراسخًا ومتفائلاً بلا حد، كانت الزنزانة رحبة رحابة العالم لأن العالم كله كان معي فيها، دوما كانت تحاصرني التساؤلات لكنني كنت أفلت من بعضها في عناد لأنني كنت أدرك أنه لا يوجد

عصر واحد يستطيع أن يجيب على كل التساؤلات" كان كل ما أتمناه أن تحقق مسيرة عصري شوطًا من رحلة الإنسان الطويلة والظافرة، أن تحطم عن الإنسان بعض قيوده، وتخففه من بعض العناء كي يمضي أكثر قوة وتحررا في مسيرة جديدة، وكم حاولت في مثل هذه الأوقات أن أستنجد بوعيي ولكن برغم إرادتي لا تكف نفسي الممرورة عن نز الأسى، ولا يتوقف عقلي إلا عند المعذب من الأفكار، أي مرض لعين أصاب كل خلاياي؟... أى مرض هذا الذي يسرب من عروقي الدفء ورحيق الفرح، ويخلف في دمائي فتور الرماد والأسى؟.. لا يمكن أن يستمر هذا الحال، لا بد من نهاية، أية نهاية... أمين ما يزال يعب خمره وسط الدخان، لأسترح إلى جوارك قليلاً أيها الشاعر القديم، تعبت قدماي، إلى متى يستمر التجوال الخائب؟... إلى متى يطول الوقوف في انتظار القطارات التي لا تصل!.

- تعال يا رأفت.

- ها قد جئت.

- جئت في وقتك تماما فأنا... هل التقيت بأصدقائك؟

- لم ألتق بأحد.

- ولا واحد !؟

- التقيت بتاجر مواشي كان يوما صديقًا لي.

- تاجر مواشي... ها ... ها....ها... لاشك أنه نجح نجاحا رائعا.

- كان يحلم في صباه بأن يكون موسيقارا كبيرا.

- عرف سر اللعبة، لحق بالقطار قبل أن يضيع، خذ... اشرب كأسا.

- سأشرب... كان لي صديق يتساءل كثيرا وجن.

- العقل كارثة هذه الأيام.

سأشرب، سأشرب كأسا، كأسين، ثلاثة، سأشرب حتى أفقد عقلي تماما.

- لا تحدق في الكأس.

المرة الأخيرة التي شربت فيها كانت منذ شهور؛ أردت أن أحرك ركود مشاعري، أن أوقف انسياب الأيام الرمادية، لعل أفكارا نزقة ومجنونة تعربد في عقلي، لعل شيئًا يتقد

بداخلي، وفي نهاية الليل عدت إلى البيت ثملاً، كانت تراودني رغبة في الشجار، تمنيت أن توبخني، أن تعلق بكلمة فأنفجر فيها، لكنها لم تنطق بلفظ، رفت في عينيها سحابة أسى، وضمتني إليها حتى استغرقت في النوم، وفي الصباح فاجأتها تبكى في صمت، وفور أن رأتني مسحت دموعها وحاولت أن تبتسم، هممت بأن أعتذر إليها فصرفتني إلى موضوع آخر.

- أتصلي أمام الكأس؟!... أيحزنك أن تجد الأصدقاء قد تغيروا كثيرا عن أيام الصبا!... عندما يظن ركاب السفينة أنها على وشك الغرق يفقدون صوابهم؛ ويعدو كل منهم كالجرذ المذعور إلى ما يعتقد أنه خلاص ذاته حتى ولو سحق الآخرين في طريقه... بدأت أيام الطوفان فمن يصنع فلك الطيبين؟!

إيه أيها الشاعر... كنت واحدا من الذين يصنعون الفلك.. كنت..

- أتعرف شيئًا عن المماليك المصريين!.. ضرب الأغنياء باسم أحلام الفقراء،وحوصر الفقراء وظلوا مقهورين فولد المماليك، وقافلة إثر قافلة يغيرون على الحارة

المصرية، ينهبون زادها وأحلامها، ويخربون كل شيء فيها، ويشيعون بين أولادنا أحلام اللصوص والأفاقين والقوادين، وطن غريب وتعس، دوما يبتلى باللصوص، وكل أحلامه قصيرة العمر... أتهز رأسك!... لا تكن جادا يا رأفت، يكفي ما ضاع من عمرنا، أتريد أن تجلس في مقهى عمال البناء؟... كنت تجلس فيه كثيرا أيام صباك.

قلة من الوجود الذابلة المنطفئة، الجوزة ما زالت تدور بأنفاس آخر الليل، معظم عمال البناء عادوا إلى بيوتهم في جبل الجلة، عادواليناموا وليستيقظوا في الصباح الباكر لاستقبال يوم عمل جديد، يوم آخر شاق، من يجلسون بالمقهى حتى هذه الساعة يأملون في حضور المقاول لقبض بقية الأجر أو الاتفاق على عمل يوم آخر، عندما كان أبي يتشدد في محاسبة عماله في نهاية الأسبوع كنت أنحاز إلى جانب العمال، وكان أخي ينحاز إلى جانب أبي، كان والدي ينتهرني ويتهمني بالعقوق والتلاف، وكان يعجب بأخي وينفحه بدفعات من النقود، كنت الابن الفاسد وكان هو الابن الفالح، كنت أرفض أن أتناول شيئًا من البيض الذي كان عم كريم يحرمه على أولاده ويحضره لنا هدية تودد كل أسبوع،

كنت أزور عم كريم وعم ويصا ومحمود الأخرس في بيوتهم، كان يسعدني حبهم لي وترحيبهم بي، كثيرا ما جلست معهم في المقهى أنا ومحسن، في الركن كان يجلس الصديق العجوز، كان عم محمد يجذب الأنفاس ويسعل سعاله المشروخ، مات مصدورا، مات إسماعيل أيضا، الوجه الأسود جحظت عيناه وغارت وجنتاه، وتحولت القامة الفارعة الممتلئة إلى هيكل عظمي يكسوه جلد معرق كجلد دجاجة منتوفة الريش، ترك عمله في أحد البيوت الكبيرة بقريتنا، وجاء إلى الإسكندرية ليعمل فاعلاً عند أبي، كان ينام في العمارات أو بحيرة صغيرة تحت سلم بيتنا، في بعض الأمسيات كنت أذهب إليه في العمارات وأمام النار التي يوقدها تلمسا للدفء وإعداد الشاى ترق ملامحه، وتطوف بها بسمة حالمة، وتحلق عيناه إلى حلمه البعيد، حلم امتلاك فدان أو فدانين في زمام قريتنا، ويعود من حلمه ليعدني بأن يدعوني إلى القرية بعد أن يشتري الأرض ليجلسني في خص البوص على طرف الحقل، ويعزف لي بنايه ويغني المواويل التي أحبها.

كان عم محمد يقول إن إسماعيل سينسى حلمه سـريعا فكلهم أحلامهم قصيرة العمر، كان يقتر على نفسه ليقتصـد الجزء الأكبر من أجره الضئيل، ويوما بعد يـوم يسـتنزف بريق عينيه، وتجف قامته، وذات صباح وجدناه ميتًـا فـي الجحر الصغير أسفل سلمنا، ولم يكـن قـد اشـترى غيـر قيراطين... ماذا تقول يا صديقي؟

- يحيا كاتب الأرشيف، لترقص الفئران... لتقرض من الملفات ما تشاء، الفئران كائنات دءوبة رائعة، اعتدت عشرتها، أحمد يقول إنني انتهيت قبل أن أبدأ، فيلجرب ذلك الأحمق الصغير، سيمضي في نفس الطريق لينتهي حيث تبدأ الفئران، يقول إن الشعر لا ينبغي أن يحنط على الصفحات الصفراء، وإنه يجب أن يصل مباشرة إلى الناس، كثيرا ما يجلس في مقاهى العمال ليسمع المتعبين أشعاره، من يدري!... لعله يحقق ما فشلت أنا في تحقيقه، أنا صديق الفئران، أما زلت تحدق في الكأس!... أما زلت تتلو صلواتك يا كاتب القصص!. أرح عقلك قليلاً يا صديقي.

ماذا أيها الصديق؟... ما جدوى كل هذا؟... لماذا التمزق والمعاناة والآخرون يهرولون لاستلاب ما يمكن

استلابه؟... كنت في صباى أرى الكاتب إلها يتربع في سماء رحبة، يعانق الآفاق في جسارة، ويبدع العوالم التي يغتسل فيها الإنسان ويتعرف على حقيقة ذاته والعالم، فإذا بالكاتب إنسان معذب الروح، تتربص به عند كل منعطف عيون عدو شرسة لتنهش قلبه وتستنزف نداه، وإذا بالكلمة الصادقة شيء مطارد عليه أن يعبر أبوابا كثيرة ينتصب فيها حراس أشداء مدججون بكل وسائل المسخ والتشويه، لماذا لا لا أنفض كل شيء؟... لماذا لا أغرق نفسي في جمع المال بأية وسيلة وأستمتع بكل ما يتاح لي من متع حسية دون أن أشقى بالآخرين وحياتهم؟... لن أعيش حياتى مرتين فلماذا أبدد العمر في العناء؟... أحيانًا تستبد بي رغبة في أن أترك كل شيء، القراءة والكتابة والتفكير، وأن أتغاضى عن كل ما يحيط بي، وأغرق نفسي في عمل يدرُّ عليَّ الربح، لكن ما أن تمر أيام بلا قراءة حتى أستشعر الاختلاط والتشويش بداخلي، وأفتقد معنى ومذاق الأشياء والأحداث... هل هو العجز عن تغيير مجرى النهر؟... هل هي الرغبة في إيلام الذات وتعذيبها؟ هل أستطيع ترويض نفسي على قبول مثل هذا المصير؟... أن أعيش حياة تخلو من التفكير

والرغبة في التغيير؟... هل يمكن أن أسير مغمض العينين وأن أواجه القبح والمظالم دون أن أقول لا؟... أيمكن لمثل هذه الحياة أن تعطي للإنسان لحظة فرح حقيقي، وفخرا واعتزازا بإنسانيته؟... لكن لماذا المعاناة التي يعانيها من يعانقون الأشواق وأحلام الخلاص؟... لماذا المشقات التي أعانيها ويعانيها معي من أحبهم؟... هل هي ضريبة الحلم؟... هل هي صليب الخلاص؟... قل لي أيها الشاعر القديم، يا رفيق الأشواق والأحلام.... يبدو أنك لست معي، عيناك تغوصان في الكأس، ماذا يخطر لك؟... أتستعيد أحداثًا من أيام التوهج؟... أتفكر في لا جدوى الكلمات وفي الشيء الذي تحتاجه حياتنا ليحرك أعماقنا ويمزق بلادتنا؟... ذلك الشيء يحتاج إلى قلوب طيبة وجسورة تقتحم البداية، وكي توجد هذه القلوب وتوجد الطاقة لا بد من الزيت المقدس، الزيت الذي كنت تقول إنه يوقد القناديل في قدس أقداس قلب الإنسان، وعلى البعض أن يعتصروا أنفسهم عبر الحب والشوق و المعاناة كي يستقطروا الزيت للقناديل التي توقد شعلة البداية وشعل الاستمرار، رحلة طويلة يا صديقي... رحلة طويلة وليس فيها غير الأمل في أن

تصل الكلمات إلى قلب وعقل إنسان قد لا نلتقي به أبدا فتمنحه القوة على أن يقول كلمة صدق أو يقف في وجه ظالم أو حتى تمنحه العزاء في لحظة يأس... أتغمض عينيك؟.. أتسند رأسك المتعب على الحائط؟

إيه أيتها الوجوه المتعبة، يا من رافقتني طوال رحلتي، وكان أساي لشقائك يفجر في قلبي الغضب ويولد الأشواق ويصوغ كلماتى، كنت أراك في كل مكان أذهب إليه، في قرانا الطينية المسكينة، وفي شوارعنا الصهدية المزدحمة، كم تعلمت منك، من الكلمات البسيطة تجسد خبرات السنين الطويلة بلا ادعاء أو حذلقة، وعندما اخترت طريقي أحسست أنني اقترب منك أكثر فأكثر، شعرت بأنني أنتمي إليك ببنوة حقيقية، في محنتي تعذبني رؤيتك، صدقيني ما زلت أنتمي إليك، لم أحلم يوما غير أحلامك ولم أفكر في بيع ما وهبتني من معرفة وأشواق وكلمات، لكنني الآن متعب، متعب وحزين، عليَّ أن أنهض من أجلك أنت، عليَّ أن أستجمع بقية قواي وعمري وأهبها لمسيرتك وفاء لما منحتني من بصيرة، لكن كيف يمكن أن تصلك كلماتي وتولد في عيونك الغضب والشوق والجسارة؟... بينك وبين ما

يكتبه الطيبون عمر طويل، هل أكتفي بأن أكون أحد أفواهك الطيبة التي تخاطب من ينتسبون إليك من أبناء!... لكنني... آه... ما عدت من سنين قريبا منك، تقهقرت إلى سجن ذاتي المريضة، كيف يمكن أن تأخذيني في أحضانك الدفيئة؟... كيف يمكن أن تمنحيني المزيد من أسرارك؟...

- هل أضعنا العمر عبثًا يا رأفت؟

- لا .. لم نضع شيئًا.

ماذا أنتظر؟... إنتهت رحلتي و عليَّ أن أنصرف.

- إلى أين؟

- سأنصرف.

- لم تشرب كأسك.

- لن أشرب.

- مازال الليل طويلاً.

- تأخرت كثيرا .

- انتظر... انتظر... سأوصلك.

- لا تتعب نفسك .

- سأتمشى معك قليلاً.. قد لا نلتقي مرة أخرى.

تماسك يا أخي، استند عليّ، لقد أفرطت كثيرا.

- الطريق خالٍ، أهل حينا ناموا يا رأفت، أهل حينا ينامون مبكرين، ينامون كثيرا، هل ستأتي مرة أخرى إلى غيط العنب!... لا أظن، قد تأتي في شيخوختك، سيكون حينا قد تغير كثيرا، لا ... لن يتغير، مازال كما كان أيام صبانا، بل ساء كثيرا، خربته غارات اللصوص في الليل والنهار، ومرارة الخيبات المتتالية، والعدو الأعمى خلف الوعود الكاذبة، عندما غادرته أنت كان فيه بعض الخير، ماذا تأتي به الأيام الضبابية القادمة؟... أنا لن أترك حينا أبدا.... انتظر يا رأفت، ساقاي لا تقويان على حملي، أستشعر شيئًا من الوهن، لحظة ريثما أستريح، لأجلس على الطوار، يبدو أنني أفرطت في الشراب هذه الليلة، حديث الصبا حرك شيئًا من أشجاني، ابتعث أشياء طُمِرت في نفسي منذ زمن بعيد، الطوار بارد، تعال يا رأفت، ألم تشتق إلى تراب حينا!

كفى... لا يمكن الانتظار أكثر من هذا، لأمضِ بأسرع ما أستطيع، الساعة الثانية عشرة والربع، أربع ساعات وأنا أتجول في غيط العنب.

- تعال يا صديقي، لا تخجل من الجلوس على الطوار، لا جدوى من الكلمات، لا تضيع عمرك عبثًا، حتى ملايين الكلمات لن تفعل شيئًا، لا بد من عاصفة مجنونة تكتسح أشجار العفن والحشائش السامة، عاصفة تطهر الأرض، وتهيؤها لغرس جديد، لا بد من البروق والرعود.

- تأخر الوقت كثيرا، سأنصرف .

- انصرف يا رأفت، انصرف يا صديقي، كان بودي أن أمشي معك ولو قليلاً، لا أستطيع، قد أجلس هنا حتى الصباح، لا يوجد ما يدعوني للعودة إلى البيت في هذا الوقت.

المحلات أغلقت أبوابها، لا بد أن محل عم يوسف الحلواني أغلق هو الآخر، البيوت كتل داكنة تتشح بالسكون والظلام، أعمدة المصابيح تتباعد، كل منها يقف وحيدا، يحمل الضوء الهزيل ولا يبدد إلا دائرة صغيرة من الظلمة، الهواء يطير القش وذرات الغبار.

- إيه... يا غيط العنب... ألا تستيقظ؟... ألا تعرف أبناءك الحقيقيين؟ شعر!... ها..ها.. تسقط كل الكلمات

الخرساء، أين أنتِ يا أيام الجنون؟... أقبلي أيتها العاصفة، تسقط كل الأشعار.

الشاعر القديم ما يزال على الطوار؛ أشخاص قلائل يسرعون الخطا، يفرون من برودة آخر الليل، الكوبري يلوح جامدا وصلبا ومعتما؛ متى يفتَح لعبور المراكب؟ في صبانا كان يفتح ثلاث مرات كل يوم، بائع الفاكهة ما يزال جالسا في مكانه، يبدو أنه نام نوما حقيقيا هذه المرة، فاكهته ما فتئت معروضة للبيع، من يشتري يا أخي في هذا الوقت المتأخر؟... أهل حينا ناموا، لم يبقِ إلا الذين يسارعون بالفرار، والشاعر الذي يهتف بسقوط الأشعار، العمال القلائل في مقهى عمال البناء ينتظرون بقية الأجر، قد لا يأتي المقاول فيعودون إلى بيوتهم خائبين، شارع الكروم... إيه يا شارع الصبا، هل أمر فيك للمرة الأخيرة؟... هل أودع البيت الذي عشت فيه إثني عشر عاما؟ لا أقل من نظرة وداع.

بيتنا يتخفى في الظلام، ملامحه لا تبين... ألا تعرفني أيها البيت؟... ألا تذكر الصبى الذي عاش فيك إثني عشر عاما؟... وأنت أيتها البيوت، أين وجوهك الحانية التي

صافحتها كثيرا بعيني؟... كنت أظن أنني أمتّ إليك بصلة حميمة، صلة لا تنفصم أبدا مهما طوَّحت بي الغربة، لعل رسما أو خطًا خطته يدي في صباي وما زال على وجه جدار من جدرانك؛ وأنت يا شارع الكروم، أنسيتني أنت الآخر؟... أنا الذي مشيت فيك طفلاً وصبيا وعانقت فيك فجر شبابي، كم سرت هنا، كم لعبت هنا، كم ضحكت وغنيت مع الصحاب، لعل موضعا من مواطئ قدمي لم تطأه قدم بعدي ومازال على صفحتك يحمل أثرا مني، حقًا لقد تغيرت أنا أيضا، لم أعد كما كنت أيام انطلقت هنا، في أعماقي جثث أشواق مقتولة، ونجوم متفحمة سقطت من سماء أحلامي، ووجوه كثيرة أحببتها وكانت تشرق بالحياة لكنها فقدت ملامحها وظلت في أعماقي أسى بلا ملامح، حتى قسماتي تغيرت، أنا أعرف أن الندى جف من عيني، وأن البراءة التي كانت تشيع في وجهي فرَّت وحلت محلها الجفون والسخط، أنا أيضا تغيرت كثيرا... لكنني ما زلت برغم كل شيء وفيا لك أيها الشارع، مازلت وفيا لأهل حينا، وأمينًا على ما منحوني إياه وأنا صبي. وأنت أيها البيت الصغير. أما زلت تقبع ضئيلاً ومتصاغرا أمام بيتنا.. الأيام التي

حاولت أن أمحوها من أيامي، الوجه المجدور، والعينان نصف المغمضتين والشفتان الكبيرتان، التسلل في الليل، التسلل عبر الممر المظلم، والطرقات الخافتة المستعجلة، والباب الصغير يفتح عن وجه المستنقعات الجافة فأندفع إلى الداخل.

ضوء مصباح الغاز الصغير يزيح العتمة فتنحسر وتتكوَّن في الأركان، الظلال الشاحبة على الجدران الصفراء المتآكلة، الأريكة بغطائها العبك المتسخ، أجلس على الأريكة متوترا ولاهثًا، تطل على شرفتنا عبر قضبان النافذة الصغيرة فأبتعد على بابها المغلق، تتحسس عيناي القامة الفارهة الممتلئة، والصدر الكبير، والأرداف المكتنزة، وتقترب مني، تجلس إلى جواري وترمقني بحفرتين صغيرتين يلتمع فيهما زيت عكر، تطوقني بذراعيها، وتقرب وجهها وشفتيها الغليظتين الداكنتين من وجهي فأنفلت منها، وأسارع بخلع ملابسي فتخلع ثيابها وتجمعنا اللحظات المرتجفة.

يختفي قبح الوجه فأقبله في شراهة وألتهم شفتيها بنهم، وترتعش اللحظات وتسقط هامدة، ويسترخي كل شيء،

وتنسحب عيناي من قيعان المستنقعات، تبتعد عن الشفة التي تتهدل في ظمأ أبله، وأهم بارتداء ملابسي، وترتفع عيناي فاترتين ومثقلتين إلى شرفتي فأجد بابها معتما وصامتًا، تتسكع عيناي على محتويات الغرفة، على المصباح المحاصر بسناجه الأسود، والظلال الراكدة وصوان الملابس العجوز المتهالك، والجسد الأسمر العاري بتلاله ومنخفضاته وهو مسترخٍ ومنتظر على الأريكة، وتتوقف عيناي على الوجه المجدور والعينين المعتمتين، ويتمثل لي وجه نادية حلوا، ونقيا، لكنه بعيد وعصي، وتجلجل ضحكاتها العابثة تهزأ بي وتجادلني فيرتجف شيء بداخلي، يختنق، وتتملكني رغبة مجنونة في أن أغوص وأغوص حتى القاع، أن أجهد جسدي وأفنيه فأعود إليها، وأحتال على نفسي كي أرتجف رجفات عصبية منطفئة.

وألملم نفسي، وأسارع بالفرار.

تتلقفني الطرق الجهمة، أرنو إلى السماء فأراها حالكة ومغلقة ترزح على البيوت وتكاد تكتم أنفاسها، أتساءل عن بحار يمكن أن أستحم فيها فأستعيد بكارتي، عن شيء

يصهرني ويذيب جسدي ولا يبقى منه سوى التوق إلى النقاء والسمو، وأمشي! وأمشي بلا غاية.

أستنزف بقية قواي على وجه الطرقات ثم أجرر ساقيَ، وأعود إلى البيت لأدفن نفسي في الفراش، أو تتمرد قدماي فتحملاني إلى بيت نادية لأقف في الظلام وأرنو إلى شرفتها، وأهمُ بأن أصيح، أن أناديها لتسرع إليَ وتدعني أرتمي على صدرها، لكن باب شرفتها الموصد يقول لي في جفاء إنني لن أصل أبدا الى صدرها فأسلم نفسي للطرقات.

وفي الساعات الأرقة أنتفض؛ أثور على استسلامي وعجزي؛ أستنجد بالعوالم الزاهية التي حلمت بها، وبالمثل الأعلى الذي وضعته على ربوة أيامي، أتلهف إلى أن أكون نقيا وقويا؛ وأصمم على ألا أعود إلى بيت المرأة مرة أخرى، لكنني أعود بعد أيام لأتمزق فيه من جديد.

وأستفيق على أصابعي وهي تمتد في تشنج إلى رقبة المرأة، تهم بكتم أنفاسها وخنق الضوء المرتجف في عينيها، خنق ذلتي وعاري، وأقهقر الأصابع محقرا ذاتي التي تستجدي الخلاص بالقتل، وتشرئب شفتا المرأة إلى شفتي

فأعذبها بالشبق، أقربها إلى قمة الجبل لأدعها تهوي إلى السفح مرجوفة الأعصاب خائبة.

وأغتسل بدموعي، أدخل حديقة الفن فتتخلـق العـوالم المضيئة، ويتقد حنيني إلى حب نقي، إلـى عنـاق لا يولـد الإحساس بالمهانة، إلى همس حنون ومحب يختلف عن ذلك الفحيح، وأجدني محاصرا بالبخل والقسوة والخنوع، بالوجوه الذابلة، والعيون المنطفئة، والابتسامات المرسومة الثعبانيـة، وبعشرات الأسئلة التي لا أجد جوابا لها فأتساءل عما إذا كان يمكن أن يوجد خلاص، وهل يمكن أن يكون الإنسان نبـيلاً وقويا وسعيدا.

ومرة أجدني تائها ومعذبا في الضباب فأصمم على الخلاص بالموت.

وأذهب إلى البحر؛ أنوي أن أدفن نفسي وعذاباتي فـي أمواجه، ويستقبلني رحبا ونقيا وظافرا، وتصطفق الأمـواج، تغتسل بضوء الشمس، وتتحدى الصخور، وتبدو مدينتي على الشاطئ شامخة، بيوتها ومآذنهـا رمـزا لعظمـة الإنسـان وإبداعه، وما ينبغي أن يكون عليه من شموخ ونبالة، وتتمثل لي اللحظات الطيبة في حياتي، والمعاناة التي عانيتها لأصوغ

نفسي صياغة جديدة، وتطل عليَ وجوه الأصدقاء والمعارف الطيبين، وينتعش الأمل في حب نادية وفي وجود حياة طيبة وسعيدة سأعيشها ويعيشها الجميـع فيتبـدد عزمـي علـى الانتحار، وتقول رحابة البحر إن في الحيـاة أشـياء كثيـرة تستحق أن أعيش لها فأعانق الأفق، وأحلم بحيـاة يعمرهـا الحب والشرف و الاكتفاء.

كم أحببت البحر برقته، وصخبه، وكم أحببت الإسكندرية وأنا أرنو إليها من لسان الأرض الممتد في البحر عند الشاطئ والضوء عقد مضفور يتلألأ على جيدها، وكم داعبت الأنسام وفرحت بالعشاق وهم يتناجون أمام البحر وبين ذراعى مدينتي، ها قد عشت الحب، عشته كما لم أحلم به أبدا، لو أن الأيام لا تسرق منا لحظات العناق، لو تبقى عشرات البسمات تضيء في بسمة حبيبتي، لو أن عينيها تظلان صافيتين وحانيتين وآملتين دوما، إيه أيها الزقاق المظلم، فيك وقفت الحبيبة تبتسم وتعدني عيناها بفيض الحنان، وفيك رنوت كثيرا إلى البسمة التي رافقتني في صحراء أيامي، جمعتنا الأيام بعيدا عنك أيها الزقاق، لكنك ستبقى مشرقًا في ذاكرتي دوما، وأنت يا شرفتنا، وقفت فيك

أترقب الحبيب، وداعا يا شرفتنا، وداعا يا بيتنا، كنت أتمنى أن أعود إليك كثيرا، وأتمشى إلى جوارك أنا والصحاب، لكنني عبرت أربعة عشر عاما لأمضي وحيدا في شوارع حينا، لم أكن أعرف أن الزمن غير كل شيء.

هيا يا قدميَ، لا جدوى من التسكع في مواطن لم تعد لنا.

إلى أين؟... إلى أين يا خطاي؟... أما تعبت من التجوال الخائب؟...

ماذا تأملين بعد الآن؟... هل يمكن أن أجد العجوز الطيب في مقهانا الصغير؟. أيمكن أن ألتقي به فأتحدث معه عن الصديق الذي مات، والصديق الذي هاجر، والآخر الذي أصبح تاجرا للمواشي؟.. لأمضِ حتى النهاية، لن أخسر شيئًا بعد الآن.

بيت الحاجة... بعد خروجي من بيت المرأة تجرني قدماي إلى سياج الحديقة فأستند إليه، وأرنو من فرجات السياج إلى أوراق الشجر المتساقطة اليابسة، والأغصان الداكنة الجرداء، وباب مسكن العجوز المغلق تنحدر منه عدة

درجات، وتحيط به نقوش قديمة، وتتسلقه أغصان لبلابة عارية، وتتعلق عيناي بنافذة العجوز يشع من ستائرها البيضاء ضوء أصفر، دافئ، فأحن إلى الدفء، والحب، والأمان.

أمل تقف في أعلى الدرج ترتدي قميص نوم حريري أبيض، وتحيط بها أشجار عجاف حزينة، ويرجفها برد الشتاء، تتلفت في أنحاء الحديقة، وتترقرق في عينيها الدموع، وأسرع إليها، أضمها إلى صدري، وأسألها عما يبكيها فتدس وجهها في أحضاني وتنفجر في البكاء.... متى رأيت هذا الحلم؟.... ها هو بيت صلاح القديم، نافذة الصبا مغلقة أيها الحالم القديم.

- دع الأحلام الفارغة، أفق وأفعل ما يفعله الجميع.

أنا لن أفيق، لن أتخلى عن طفلي يا تاجر المواشي.

الزقاق الذي ينتهي به شارعنا ويصعد إلى شاطئ الترعة، لم يكن بهذا الضيق أيام صبانا، ها هي الترعة؛ الظلمة تتراكم فوق المياه، تخفي الشاطئ الآخر، المراكب الصغيرة هامدة في العتمة الشفيفة، السماء مبطنة بسحابات

رمادية متكاثفة، لا نجوم الليلة، لا يوجد إلا قمر مبتور فاتر، المصابيح الصغيرة ترتعش، الهواء بارد، أطرافي ترتجف، البيوت الواطئة تقف في سكون، يتباعد كل منها عن الآخر، مخزن الأخشاب، بعده بقليل مقهانا الصغير، ها آنذا أتجه إليك أيها العجوز، ولكني وحيد هذه المرة، من جاء متأخرا أربعة عشر عاما هل يجد شيئًا يا أبي الطيب؟... وإذا كنت قد بكرت في المجيء فماذا كان يمكن أن أجد؟... لا يلوح ضوء في موضع مقهانا، أين مرسانا في نهايات الليل؟... في موضعه كومة من الحجارة البيضاء، أين أنت أيها العجوز؟.. هل هجرت حينا أم طواك الذي طوى محسن؟... حتى بسمتك الودود المتعبة حرمت منها؟!

النخلة العتيقة التي كنا نجلس إلى جوارها، ما زالت في مكانها تسربرها الظلمة، أين توأمك أيتها النخلة العجوز؟... الظلمة تقبض على نهاية الشارع، لأعد من طريق الشاطئ، الطريق خالٍ، رجل قصير ناحل يسير إلى جوار الترعة، متئد الخطا، يبدو أنه لا يجد بيتًا يأويه، هيا يا قدميَّ، انتهت رحلتي، هيا يا شارع الترعة، ألقِ بي بعيدا عنك، ليت غيط العنب ظل في ذاكرتي بشوارعه المضيئة والوجوه الحبيبة،

ليت المجيء ظل أملاً نديا وعذبا يلوح لي، ويقول إن على البعد أشياء طيبة تنتظرني.

- مساء الخير.

- من؟

- ألست رأفت فهمي؟

- عم عبده؟!

ياه... أتعانقني ياعم عبده؟!... أتقبلني؟!... عناقك حار، ليس فخما وفاترا كعناق تاجر المواشي، العينان الضاحكتان، والبسمة الطيبة المجربة، صديق محسن وأستاذه، أما زلت في حينا يا عم عبده؟

- كيف حالك يا رأفت؟

- بخير.... كيف حالك أنت؟

- كما كنت دائما.

لم يتغير كثيرا، شعره ابيض بالشيب، وجهه زحفت إليه بعض التجاعيد، لكنه زاد حنوا وودا، كثيرا ما تساءلت عـن

سر قدرته على الاحتفاظ بضـحكة عينيـه بـرغم المحـن والعذابات.

- مات محسن.

- لا لم يمت .

- ماذا؟!

- كثيرون يذكرونه، كثيرون يشعرون أنه مازال يعيش بينهم، اختار طريقه، وظل أمينًا له حتى النهاية.

دوما كان يبدو أنه سيمضي ويمضي دون توقف، تاجر المواشي يتساءل عما ربحه محسن من وراء أحلامه بالعدالة.

- عرفنا أنا ومحسن بأمر اعتقالك، وسعدنا كثيرا بموقفك.

عرف محسن موقفي!... عرف أفضل مواقفي... عرف قبل أن يموت أن صديق صباه ظل أمينًا للكلمة، وأنه أصبح معه في نفس الطريق... لكنه لم يعرف شيئًا عن الأيام العرجاء، حسنًا فعل، دائما كنت أخفي عنه ما أخجل منه.

- كان محسن يتابع كتاباتك، كان يسعد بها، ويقرؤها لي ولأصدقائنا وكان يسعد بكتاباتي؟!... كنت أمني النفس بأن ألتقي به، وأستمد منه العزاء والأمل.

- أرسل إليك عدة رسائل على عنوان إحدى المجلات التي نشرت لك.

- لم يصلني شيء.

- كتاباتك في السنين الأخيرة لا تعجبني يا رأفت، تنضح بالمرارة وتغرق في الرموز.

ماذا أقول لك يا عم عبده؟... من يعطيني قدرة عينيك على الضحك؟

- يبدو أنك مررت بأحداث أرهقتك كثيرا، ينبغي أن تقترب من حياة الناس، من القاع، لا تتوقف كثيرا عند السطح والقشات العاجزة المستسلمة.

والمرض الذي ينهكني يا أبي الطيب؟

- لا بد أن نستشعر العطش ونحن نقاوم الجدب، لكن علينا أن نواصل حتى النهاية، النهر يتدفق دوما إلى الأمام،

علينا أن نغوص فيه لنطهر مجراه، ونساعد مياهه على الاندفاع.

لكن يا عم عبده.. وجوه كثيرة كانت تشرق في بسالة، وتستشرف الآفاق في فرح وانكفأت، صرعتها الأمواج، ونشهتها أنياب الحيتان، قليلون من اجتازوا اليم ووصلوا إلى الشاطئ أقوياء ومضوا في نفس الدرب، وأنا... أنا أحد الذين وصلوا الشاطئ متعبين.

- الكثيرون يسقطون يا عم عبده.

- وأكثر منهم يولدون، دائما يولد الأبناء الطيبون.
نفس كلماتك القديمة، هل تعطيني سر عينيك؟

- وأي دور بقي لكلمات الكُتاب و الشعراء؟

- الكلمات الطيبة تكون البداية دوما، وكل الكلمات الصادقة بذور طيبة، وإن كان لكل كلمة وقتها.

الكلمة كانت بداية مولدي، فتحت لـي أبـواب ونوافـذ العالم.

- على الكاتب حتى ولو كان يستشرف الفجر المقبل، ويوقن بحتمية الشروق ألا يقف وحيدا في الظلمة؛ عليه أن يقترب من مشاعل الدفء، من حرارة صحبة الطيبين.

وهل ابتعدت أنا كثيرا؟... ماذا يمكن أن أفعل؟

- لتقضِ الليلة معي.

- شكرا لا أستطيع .

- ثمة أمور كثيرة يمكن أن نناقشها معا.

- لست مهيئًا الليلة.

- أرجو أن أراك مرة أخرى، ستجدني دائما في مقاهي العمال بالشط الآخر، لا بد أن تأتي.

عم عبده يسرع في خطوه؛ نشيطًا وفتيا برغم السنين؛ تاجر المواشي يقول إن بعض الأولاد من نوع محسن يسببون له ولأمثاله الكثير من المشاكل؛ الشاعر القديم يقول إن أخاه الأصغر يكتب الشعر ويرى أنه يجب أن يجد طريقه مباشرة إلى المتعبين؛ الشاعر الصغير وصلته كلماتي؛ حينا ما زال ينجب الطيبين يا تاجر المواشي وأنا... أنا أعانق أشواقي ولا أعرضها للبيع.

كثيرا ما مشيت هنا وحيدا في المساء، مشيت معـذبا أتفرس في الوجوه والأشياء، وأحدق إلى السـماء أسـتنطقها إجابة سؤال يعذبني، ومشيت منتشيا وفرحا وحانيا، يمد قلبي ذراعيه ليحضن الناس والبيوت والأشجار والسماء؛ ليحضن كل العالم؛ كنت أحس بأنني جزء من العالم الرحب الحافـل بالأشياء الرائعة؛ كنت أتأمل وجوه أهل حينا ويفيض قلبـي حبا لهم وإشفاقًا على أساهم، وأصمم علـى المضـي حتـى النهاية لأساهم بكلماتي في تغيير حياتهم وحياة أهل بـلادي، في جعل العالم كله أجمل وأعدل، مازلت في نفس الطريـق وأنا في الرابعة والثلاثين... ماذا يمكن أن أقدم في مسـتقبل الأيام؟.

إيه يا كوبري راغب، في لحظات الضيق أذهب إليك، وأرتفق سورك، وأدفع بعيني في قلب المياه، أتابع الأضواء تضوي وتتراقص في الماء، وأرنو إلى الاشجار، وتصعد عيناي إلى السماء؛ ترقبان القمر والنجوم، وشيئًا فشيئًا أستشعر عمق ورحابة العالم فينسرب الضيق من نفسي، ويولد فيها اليقين بأن أياما طيبة تنتظرني، ستظل دوما في موضعك معبرا إلى أيام الصبا، الأيام الخضراء، هل سأقف

عليك مرة أخرى؟... هل أقف ذات أمسية أغازل العوالم البعيدة؟

سأحن إليك، وإلى غيط العنب، سأذكرك دوما، وأذكـر حينا الحبيب، من يدري لعلني أعود يوما وأمرُّ عليـك وأنـا أحمل حصادا كبيرا لأهل حينا، أبنائه المتعبين، الطيبين.

سأعود إلى الحبيبة، ستستقبلني ببسمتها المضيئة، لن أنطق بكلمة، لن أحكي لها شيئًا، ستنظر في عيني وترى كل شيء، ستعانقني عيناها الحانيتان، وتتسع بسمتها لتحتويني بدفئها، وتضم رأسي إلى صدرها وتهمس لي:

- الأيام الحلوة قادمة .

وتنشد قصائد من أشعاري والأشعار التي أحبها.

ستلحق عيناها بباسلتين وآملتين، وينساب صوتها دافئًـا، ومشرقًا، وعذبا يفرد أغنياتي، وفي الصباح ستسـتيقظ أمـل وباسل، ستسألني أمل عن أبطال حكاياتهـا، عـن محسـن وصلاح ومجدي وكمال، ستجلس على ساقيَّ، وتطلب منـي أن أحكي لها الحكايات، سأقول لها إنه لم تعد عندي حكايات جديدة، ستزر أجفانها وترشوني ببسمتها الطفلة، سأقربها إليَّ،

وأرحل في عينيها المشرقتين الجديدتين مستشـرفًا المرافـئ البعيدة، وسأحكي لها حكايات جديدة، سأسمي أبطالها بأسماء غير أسماء أصدقاء الصبا، سـيكون لمحسـن حكايـة مـن حكايات أمل.

القاهرة في يونيو ١٩٧٦

كتب للمؤلف

١- الحــب فــوق مســتطيل الضــوء الشــاحب " مجموعة قصصية" عام ١٩٧٢. مكتبـة " الثقافـة الجديدة بالإسكندرية".

٢- هروب الطائر الأبيض " رواية"

عام ١٩٧٦ مكتبة " الثقافة الجديدة بالإسكندرية "

للمؤلف تحت الطبع

١- فرحة الحدائق الصغيرة " مجموعة قصصية "

٢- قمر أسمر في الغربة " مجموعه قصصية"

٣- ملامح الشواطئ البعيدة " مجموعة قصصية"

٤- رحلة في مستقبل الإنسان " رؤية لمستقبل الإنسانية في شكل روائي"

٥- الفن والفنان والمجتمع " دراسة في طبيعة الفن وعلاقته بالمجتمع".